جِنَايَاتُ الإِنْكِلِيْزِ

عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً وَعَلَى الْمُسْلِمِيْنَ خَاصَّةً

لِلسَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيْبِ الْعُبَيْدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

(١٨٨٠–١٩٦٣م)

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَحَقَّقَهُ: عِزُّ الدِّيْنِ

هِشَامُ بْنُ عَبْدِالْكَرِيْمِ الْبَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

جِنَايَاتُ الإنْكِلِيزِ

جِنَايَاتُ الانْكلِيْزِ

عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً وَعَلَى الْمُسْلِمِيْنَ خَاصَّةً

تَأْلِيْفُ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيْبٍ الْعُبَيْدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

مَتَى؟

يَـا أُسَــارَى الْهَــوَانِ قَوْمــاً	قَــدْ عَــرَفْتُمْ جَـرَائِمَ الانْكلِيْــزِ
فَمَتَــى تُحَطِّمُــونَ لِلــذُّلِّ قَيْـداً	مَسْـتَعِينِيْنَ بِـالْقَوِيِّ الْعَزِيْـزِ؟

عِشْ سَعِيْداً أَوْ مُتْ كَرِيْماً

النَّاسُ اثْنَانِ: سَابِقٌ، أَوْ لاَحِقٌ؛ ثُمَّ ثَالِثٌ مِنْ سَقَطِ المتَاعِ.

فَالسَّابِقُ: مَنْ يُجِيْرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ، يَحْمِي حَقِيْقَتَهُ وَيَمْنَعُ دُرَّتَهُ، وَكَذَلِكَ يَحْيَا كَرِيْماً وَيَمُوتُ كَرِيماً.

وَاللاَّحِقُ: مَنْ يَمْتَطِي غَارِبَ الْعَزْمِ وَيَمْرَحُ فِي مَيْدَانِ الْعَمَلِ، يَجْرِي لمِثْلِ تِلْكَ الْغَايَةِ الشَّرِيْفَةِ، يَحْيَا فِي ظِلِّهَا سَعِيْداً فَيَشْكُرُ، أَوْ يَمُوتُ دُونَهَا كَرِيْماً فَيُعْذَرُ.

إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمِضْمَارِ أَدْعُو إِخْوَانِي الشَّرْقِيِّيْنَ عَامَّةً وَالْمُسْلِمِيْنَ خَاصَّةً، ثُمَّ أُجِلُّ قَدْرَ كِلَيْهِمَا أَنْ يَكُونَا ثَالِثَ (الاثْنَيْنِ) مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ.

السَّيِّدُ مُحَمَّدُ حَبِيْبٍ الْعُبَيْدِيُّ



الْحَمْدُ للهِ، فَهُوَ حَسْبِي وَكَفَى
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم

مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(١) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٢).

بعد أن منَّ الله علينا بإنجاز تحقيق كتاب (حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام)، رأينا أنه من المناسب إكمال رسالة المصنف المفتي العبيدي رَحِمَهُ اللهُ، بتحقيق كتابه (جنايات الإنكليز) الذي بين يديك أيها القارئ الكريم.

ومع أن لكل زمان معاناته في حس الإنسان النابه وشعوره، إلا أن كتاب (جنايات الإنكليز) فيه من الإحساس المرهف ما يعانيه إنسان الزمن الحاضر،

---

(١) القلم / ٥١. (٢) البقرة / ١٢٠.

الذي يعيش بعد نَفَسِ المؤلف في كتابه بأكثر من سبعين سنة، فنجدُ أن المعاناة للمسلمين واحدة على مر الزمن في الملك الجبري، إذ زمن تصنيف الكتاب هو بدء الزمن لنشأة الملك الجبري في تاريخ المسلمين، فلهذا لا غرابة أن يكون الإحساس والشعور واحداً.

و لم نزد على ما قدَّمه المصنف في التعليق والبيان أكثر مما هو ضروري للقارئ المثقف، مع العناية بعزو الآيات إلى مظانِّها من القرآن الكريم، وعزو الأحاديث إلى مظانِّها من كتب السنن على قلَّتها. فموضوع الكتاب يتناول الجانب السياسي من معاناة المسلمين في صراعهم الحضاري والفكري قبالة تحديات الفكر الرأسمالي الليبرالي.

اعتمدنا في تحقيقنا النسخة المطبوعة سنة (١٩١٦م) وأثبتناها كما هي وعلقنا علينا حسب الضرورة.

وأسألُ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يَمُنَّ عليَّ بالتوفيق في إنجاز هذا العمل، وإيصاله إلى القارئ بما هو أمانةٌ يريدُها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ، وأسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ القبولَ عنده والرضا، إنه سميعٌ مجيب.

كَتَبَهُ عِزُّ الدِّينِ
هِشَامُ بْنُ عَبْدِالْكَرِيْمِ الْبَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ
الْمَوْصِلُ – ١٧/جُمادى الآخر/١٤٢٤هـ
١٥ / آب/ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحْمَدُكَ يَا مَنْ تَوَحَّدْتَ فِي الْبَقَاءِ، وَتَفَرَّدْتَ بِالْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، ثم جعلت للحق سلطاناً، فرفعت مناره على دعائم العناية، وللحقيقة برهاناً، فأنرتَ سبُلها بأنوار الهداية، وأُصلي وأسلم على نبيِّك وصفيِّك سيدنا ومولانا (مُحَمَّدٍ) الذي أرسلته رحمة للعباد، وهديت به الناس إلى سبيل الرشاد، ومحوت غياهب الظُّلْم والظُّلَم بما آتيته من روائع الأحكام وبدائع الحكم، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله الأتقياء، وصحبه الأصفياء، الذين شادوا دعائم دينَك إيماناً ويقيناً، وضربوا رقابَ أعدائك بسيف انتقامك تثبيتاً وتمكيناً، أئمة الهدى وأعلام التُقى، الأشدَّاء الرحماء أُباة الضيم وأبطالُ التاريخ، رضي الله عنهم ورضُوا عنه أولئكَ هم خير البريَّة.

أَمَّا بَعْدُ: فإن المسلمَ من حيث إنَّهُ مسلمٌ ظهير الحق وحليف الحقيقة يتخذهما نبراساً يستضيء بنوره وأساساً يشيد عليه صروح الأعمال، ثم من مثل هذه الرياض يقتني الفضيلةَ يجني ثمارَها ويشمُّ أزهارها. بهذا الناموس الأسنَى يأمرهُ دينه الحنيف، وإلى هذه الغاية القصوى ترشدهُ شريعته السمحاء، إذا ما استضاءَ بذاك النور ومشى على ذاك الصراطِ المستقيم.

إنَّ مِنْ فضائل هذا الدين أن يربِّي بين جوانح أبنائـــه عواطـــفَ الغَـــيرة والحنان، فالمسلمُ من حيث إنه مسلم يغارُ للحق إذا انتهكت حرمته، وللحقيقة إذا طمسَ على نورها؛ يغضب لهما غضبَ الأسد ديْسَ عرينه أو أريدَ بسوءٍ، كذلك تجدُ عنده من لطف الإحساس ورقَّة الشعور ما يبعثه علىالتألُّم للحيوان فضلاً عن الإنسان، يَرْأَفُ بهما ويخفف من ويلاتهما ما استطاع إلى ذلـــك سبيلاً. ومن هنا وهناك تَراه جامعاً بين شدَّة الشكيمة ولِين الجانب كأنما يحملُ بين ضلوعه قلبَ أمٍّ حنون ومنتقمٍ جبار في آنٍ واحدٍ.

مثلُ هذا الخُلق الإسلامي كان باعثي على تأليف هذه الرســالة. رأيــتُ حقوقاً مهضومة وحقائق مظلومة، ثم سمعتُ شكوى الإنسانية يردِّدُ صـــدى أنينها الخافقان، ولكن لا يلبث ذاك الصوت الشجيُّ أن يمتزجَ بدَوِيِّ المـــدافع وصلصلة الحديد وزفير النيران ثم يتلاشى في الفضاء ويذهبُ سُدًى لا يخفق له قلب ولا يضطربُ له ضمير.

رأيتُ دولة بريطانيا تَظْلِمُ أربعمائة مليون من بني الإنسان تُهضَمُ حقوقهم هضماً، ثم تُجْهِزُ على هذه الحقيقة بِمُدْيَةِ الكذب والخداع والمراوغة والمخاتلة، فَتُسَمِّي الظلمَ عدلاً والإفسادَ إصلاحاً والاستبدادَ حريةً والخلاعةَ تمدُّناً وهكذا تطلي الحقائق وتذُرُّ الرمادَ في العيون، تلعبُ بعقول أناس وتتَّجِـــرُ بضـــمائر آخرين.

أَجَلْتُ بصر البصيرة في أقدار الشرق وشئونه وكيف تَنَكَّرَ لـــه الـــدهرُ وطوَّحت به الطوائحُ[1] حتى تصدَّع بنيان مجده وتمزَّقَ أديمُ شملِه ثم لعبت بـــه

---

(١) الطَّيْحُ: الْهَلاَكُ، وطوَّحَ بثوبه رمَى به في مَهْلكه. وَأَصَابَتِ النَّاسَ طَيْحَةٌ؛ أَيْ أُمُورٌ فَرَّقَتْ بَيْنَهُمْ، وَطَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ: قَذَفَتْهُ الْقَوَاذِفُ، ولا يقال: الْمُطَوِّحَاتُ وهو مـــن النوادر. لسان العرب: ج ٨ ص٢١٦.

ريح الأهواء، وتقاسمتهُ أيدي المطامع وأصبحَ هدف الرزايا وغرض الخطوب، فرأيتُ أكثر النوائب وأشدَّ المصاعب إنما حلَّتْ به على يَدِ بريطانيا الأثيمةِ.

عمَّقتُ النظرَ ووسّعتُ نطاقَ التدبر وبحثتُ عن أقدارِ العصر السياسية، فقلبتُ صحائف التاريخ وبعثرتُ أوراق الحوادث وأمعنتُ النظر في طيِّ الأيام ونشرها وحلو الليالي ومرِّها، ثم محَّصتُ الحقائق ومخضت الزبدة، فرأيتُ تلك الدولةَ الغاشمة هي رأس الفتنة في كل حادث سياسيٍّ يشوشُ على عباد الله فيكدِّرُ صافياً ويدنِّسُ نقياً.

وسبرتُ غور هاتيك الحوادث والكوارث والنوائبِ والمصائبِ، فرأيتُ سهامَها مفوَّقة إلى البشرِ عامة وإلى المسلمين خاصةً.

مَخَّضْتُ هذه الزبدة كذلك، فرأيتُ أنفذ سهم تُفَوِّقهُ تلكَ اليدُ الأثيمة – يد بريطانيا الجانية – تودُّ أن تصيبَ به كَبِدَ (الهِلاَلِ الْعُثْمَانِيِّ) و (الْقَرْآنِ الْمَجِيْدِ).

أردتُ أن أقفَ على السرِّ من كل هاتيك النوايا السيئة والسجايا الدنيئةِ والأعمالِ المنكرة، فإذا مصير كلِّهن خُلُقٌ واحد، قد تأصل في عروق الأمة الانكليزية يرثهُ جيل عن جيلٍ ويربِّي عليه أبناءهم الآباء، ألا وهو فرطُ الاستئثار وعشقُ النفس مما نزعَ من هاتيك القلوب كلَّ رحمة وجعل الانكليزَ أبعدَ بني الإنسان عن الإنسان[1] كأن لم يكونوا وإياهم من أصلٍ واحد. وهذه

(١) ومن هنا كان الانكليزُ أبعدَ الأمم عن الاشتراكية كما وصفهم بذلك آدمون ديمولان في كتابه (سرُّ تَقَدُّمِ الانْكلِيْزِ) وهي جملةٌ إذا دقَّقناها تدقيقاً فَلسفياً كان معناها أنَّهم أبعدُ الأمم عن الإنسانية وكفَى بها وصمةً كُبرى؛ وإن حسدَهم عليها آدمون ديمولان وضلَّ سواءَ السبيل، كما أن له أمثالَ ذلك من الخطأ في كتابهِ المذكور مما حمله عليه أمران: فرطُ تعصُّبه على الألمان، وحرصهُ على إيقاظ قومه الافرنسيين من رقدةِ الغفلة وصحوِهم من خَمرة الطَّيش وإفاقتهم من سُكرِ الغرور. (حبيب).

العجرفةُ نفسُها ولَّدت في أنفسهم من الكِبَرِ ما خيِّلَ إليها أنَّهم فوق بقية الأمم من البشر كأنَّهم أبناءُ الثريا والناسُ أحفاد الثَّرى. ومن هنا جاءهم الاستهتارُ بالأمم والاستخفافُ بالملل ثم العداء لعامة البشر يستعبدون منهم من وصلت إليه يدهُم استعباداً وينصبون الحبائلَ لآخرين كيما يوقعوهم في أشراكِ أسْرِهم فيفسدوا عليهم أمرَ دينهم ودنياهم إفساداً.

وأما فرطُ عدائهم للشرقيين خاصةً وللمسلمين منهم على الأخصِّ فلأنَّهم يرونَ أنفُسَهم وهؤلاء البؤساء كَفَّتي سعادة وشقاء فيحرصون أن تكون كفَّتهم الراجحة وبجانبهم السعادة. إن دولةً بريطانيا تملكُ رقبةَ ٣٢٢ مليوناً في آسيا فقط، ترى سعادتَها بشقائهم ونعيمها ببؤسهم وعِزَّها بِذُلِّهِمْ وقوَّتَها بضعفهم بل حياتُها بموتِهم فهي تبذلُ جهدَ المستطيع أن يكونوا أشقياءَ بؤساءَ، أذلاَّءَ ضعفاءَ، أمواتاً غير أحياء، ولا شكَّ أن مثل هذا يعد أقصى درجات العداء. ثم لما كان المسلمونَ في الشرقِ دعامته الكبرى وعرقهُ النابض بل قلبهُ الذي منه تنبعثُ مادة الحياة يوم يأذن الله لهذا الميتِ بالنشور كانوا أبغضَ الأممِ إلى الانكليز وأوفاهم سهماً وأوفرُهم نصيباً من عداوة هؤلاء الطغام.

ثم لمثل هذا السبب نفسه كان الحظُّ الأوفر والإكسيرُ الأكبر من بغضهم وعدائهم متجهاً نحو (الهِلاَلِ الْعُثْمَانِيّ) و(الْقَرْآنِ الْمَجِيْدِ) علماً منهم بأنَّهم السبب الأوحدُ والوسيلة العظمى لحياة المسلمين خاصة والشرقيين عامة ثم لإنقاذِ سائر البشر على الأعم من خطرِ دسائِسِهم ومكايدهم وملاعنهم ومفاسدهم التي لا يَفْتَئُونَ يبثُّون شررها وشرورها بين الأمم والشعوب يشوِّشون بها على عباد الله تشويشاً.

علمتُ بالبحث والتدقيق والأمثال والأرقام والأدلة والبراهين كل هاتيك الحقائق المتلبسة بها أُمة الانكليز ودولة بريطانيا من النَّوايا السيئة والسجايا الرديئة والأعمال المنكرةِ والجنايات المركبةِ والآثام المتداخلةِ إزاءَ البشر عامة

والمسلمين خاصة، فرأيتُ أكبرَ واجب يلزمني أداؤه أن أصدعَ بما علمت إيقاظاً للراقد وتنبيهاً للغافل ثم تَهذيباً للمتغافل، خدمةً للانسانية وأبنائها كافة، غيرةً على أقوامٍ وحناناً على آخرين.

فكتبتُ هذه الرسالة وسمَّيتها (جِنَايَاتُ الانْكلِيْزِ عَلَىالْبَشَرِ عَامَّةً وَعَلَى الْمُسْلِمِيْنَ خَاصَّةً) وإنما كتبتها بصفتي مسلماً يرى من واجبه أنْ يكون ظهيرَ الحق وحليفَ الحقيقة يغارُ عليهما ويتألَّم – في سبيل تعزيزهما – للإنسان والإنسانية غيرةً وحناناً.

فإنْ بلغَ الصوتُ مداه فرب قول أنفذ من صَوْل، وإلاَّ فللمستقبل صدرٌ رَحْبٌ لا يضيق لديه الرجاءُ وللضميرِ صوتٌ أسكتُّه من جوانحي وأنطقته في جوانح آخرين[1].

وهذا أوانُ الشروع بتفصيل ما أجملناهُ، وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ باللهِ.

---

(١) جَوَانِحُ الصَّدْرِ من الأضلاعِ الْمُتَّصِلَةِ رُؤُسُهَا فِي وَسَطِ الزُّورِ، وَالْجُنَاحُ: مَا تُحُمِّلَ مِنَ الْهَمِّ وَالأَذَى. لسان العرب: ج ٢ ص٣٨١.

نَوَامِيْسُ اللّه في عِبَاده
الْوَطَنُ، وَالْحُرِّيَّةُ، وَحُبُّ الاسْتِقْلالِ

إنَّ للطبيعة نظاماً، وإن لله في سيرها أحكاماً، وشرُّ عبادِ الله مَن خالفَ نواميسه وعصى أمره، فحادَ عن الحق وسَلَكَ غير سبيل الحقيقة، حتى إذا أعماهُ الهوى وأصمَّهُ الغرور وطمسَ على بصيرته الطغيان استسادَ وتنمَّر وتكبَّرَ وتجبرَ وحمل قلب شيطان في جثمان إنسان، فكان على الإنسانية شرّاً وبيلاً وحملاً ثقيلاً.

إنَّ من نواميس اللهِ في عباده أنْ خَلَقَهُمْ أحراراً وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليتناكروا يظلمُ بعضهم بعضاً ويستعبدُ قوم آخرين[1].

وإنَّ من نواميس الله في عباده أن آوَى كلَّ أمة إلى سَكَنٍ من أرضه تُسمِّيه وطناً، من ترابه تكوَّنت طينتها وفيه نبتَتْ فنَمَتْ أرُومَتها، لا يلذُّ لها غيرُ مائه وهوائه ولا يطيب لها عيش فيما سواه، تتبوَّء منه مقاعد وتتخذ منه منازل. هذا نصيبُها من الحياة الدنيا، قد رضيت به عطيةً من الله. والأرضُ لله يورثها من عباده من يشاء.

فأيَّة أمةٍ بطرت معيشتها وبسطَتْ يدَ الظلم والعدوان إلى غيرها من

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. [الحجرات / ١٣].

الأمم، تسترقُّ رقاباً خلقت حرَّة وتغصب حقاً من عطايا الفطرة فقد خالفت نواميسَ الله في عباده فكانت لهم ظالمةً وعليهم جانيةً.

ثم إن النفسَ فطرت على حبِّ الاستقلال، يستوي في ذلك الإنسان وغيره من الحيوان. بل هو في الحيوان أظهرُ، والإنسان به أولى.

أما أنهُ في الحيوان أظهرُ: فإنك لا تكاد تجدُ نوعين من جنس الحيوان يضمهما سكنٌ واحد، بل ترى الأسدَ مثلاً في عرينه، والضبَّ في جُحره، والطائرَ في وَكْرِه، والظبيّ في كِنَاسه، والحية في غَارِها. وكذلك سائر أنواع الحيوان وأصنافه كلٌّ يأوي إلى سَكَنٍ خاص يملكُ فيه استقلالهُ. فإذا ما نازعه عليه منازعٌ ناضلَهُ بكل قواه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإلا تخلَّى عنه يائساً بائساً وعمدَ إلى سكن آخر يعيشُ فيه حُرّاً وأبَى لنفسه أن تفقدَ استقلالها. وطالما نرى الحربَ عواناً بين الطيور تذبُّ عن أوكارِها.

وأما أن الإنسان به أولى: فلأنهُ أرقُّ مشاعر وأسمى مدارك وأوسعُ نطاقاً في تكاليف الحياة، وكل ذلك من بواعث حُبِّ الاستقلال. على أن هناك أمراً آخر يقضي بوجوبِ الاستقلال للأمم والشعوب من بني الإنسان أكثرَ من بقية أنواع الحيوان، وهو ما أشار إليه أبو الطَّيِّبِ بقوله:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

فإذا ما تغلبت أمةٌ على أخرى وغصبت حقَّ استقلالها كان الظلمُ أوسعَ مجالاً وأقربَ تناولاً، ثم لا وطنَ حينئذ ولا حريةَ.

أما أنه لا وطنَ؛ فلأن الدارَ التي تسكنها إذا دخلها عليك عابرُ سبيل فشاركك في سكناها وغلبك على أمرك في إدارة شؤونها وكانت له الكلمةُ النافذة في ذلك دونك، يدهُ العليا ويدك السفلى، كأنك أحدُ الأتباع أو الأشياع، فهل من الرويَّة والتعقُّل أن تسمِّي تلك الدار دارك؟ وليس الوطن

بالإضافة إلى الأمةِ إلا دارها التي يأوي إليها مجموعها.

وأما أنه لا حريةَ: فلأن الحرَّ من مَلَكَ اختياره فعاش كما يريد لا كما يُراد، وأيُّ اختيار لمن غيره يقوم بشؤونه، وقد ألقى إليه المقاليدَ لا يملكُ نَهياً ولا أمراً؟ وكذلك شأنُ الأمم المغلوبة على أمرها: إنما تخطُّ أقدارها يد الغالب، فيا خَيْبَةَ الإنسان إذا عاش مسخَّراً كالحيوان.!

لاَ وَطَنَ وَلاَ حُرِّيَّةَ مِنْ دُونِ اسْتِقْلاَلٍ

لقد تبينَ لكَ مما فصَّلنا أن الأمةَ التي تفقد استقلالها لا تسمى حرَّةً ولا تعدُّ ربَّةَ وطنٍ. وقد عرفتَ أن الحرية والسكن -وإن شئت فقل الوطن- من مواهب الله التي اقتضتها نواميسه في عباده وأنَّهما من الحقوقِ الطبيعية للإنسان، فيتلخَّصُ لك من هذا أن القضاءَ على استقلال أمةٍ في الأرض غَصْبٌ لحقوقها الطبيعية وعصيان لما خطَّه قلمُ السماء. وأيُّ جنايةٍ أكبرُ من معصية الخالق وظلمِ المخلوق في آنٍ واحد.

الاسْتِقْلاَلُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَالْقَضَاءُ عَلَيْهِ قَضَاءٌ عَلَى كُلِّ الْحُقُوقِ

ثم إنَّ الاستقلالَ من جوامع الكلم: فكما تنطوي تحتهُ حقوقٌ طبيعية تندمج فيه حقوق وضعيةٌ هي من متمِّماتِها كالأصول والفروع، وكلُّهنَّ حقوقٌ تعترف بِها الأرض وتقدِّسُها السماء[١].

(١) كنَّى بالأرض عن أهلها، وبالسماء عن أمرِ الله باحترام حقوق الإنسان كما في الإسلام.

فالتجارةُ حقٌّ، والزراعة حقٌّ، والصناعة حق، والتربية حقٌّ وتعلم العلمِ حقٌّ، ودرسُ الفنِّ حقٌّ، وعبادةُ الله حقٌّ، ثم بناءُ المرافق والمعامل وتشييدُ المدارس لهاتيك الغايات حقٌّ.

كلٌّ أولئك حقوقٌ وضعية من متممات الحقوق الطبيعية تندمجُ تحت كلمة (الاسْتِقْلاَل..!) فإذا ما غصبتْ أمةٌ حقَّ أخرى قضت على كل حقوقها الحيوية طبيعيةً كانت أو وضعيةً، ماديةً أو أدبيةً.

بل نقولُ: إذا قضَى شعبٌ على استقلال آخر فقد هبطَ به إلى درك أسفل من درَكات الحيوان، ومن هنا كان على الإنسانيةِ جانياً كما كان للإنسانُ ظالماً.

ثَلاَثَةُ هيَاكِلَ

إذا وعيتَ كلَّ أمرٍ مرَّ بسمعك فما أخالكَ إلا وقد تمثلَ نُصْبَ عينيكَ ثلاثةُ هياكل: أحدُهما من ذهبٍ؛ والثَّانِي من حَجَرٍ؛ والثالثُ من رَمْلٍ، فأخذتَ تُقَدِّسُ واحداً وتلعنُ الآخر؛ ثم ترثي للثالث؛ لأنه أخوكَ في الإنسانية؛ وأجدرُ بالإنسان أن يتألَّم للإنسان (اللَّهُمَّ إِلاَّ مَنْ مُسِخَ قَلْبُهُ عَلَى صُورَةِ وَحْشٍ كَاسِرٍ).

فأما الذي قدَّسْتَهُ فهيكلُ الاستقلال معشوق الإنسان والإنسانية؛ بل معشوقُ كلِّ ذي روحٍ يحس بالنعيم والشقاء. وأما الذي لعنتَهُ فهيكل الظالم الذي دنَّس ذاك الهيكل الذهبي فهضمَ حقَّ الإنسان وجنَى على الإنسانية. وأما الذي توجعتَ له فهيكل المظلوم الذي هضمَ حقه الظالم ومسخَ مسخاً أدبياً حتى جعله ما دون الحيوان في بحبوحَةٍ الحياةِ حيثُ ابتذلَ له من حقوقه حتى ما

كان مَصُوناً للحيوانات في المفاوزِ والكهوفِ.

ثم ما أخالك بعدئذٍ إلا وقد أخذْتَ تفكر في الهيكلين الأخيرين: أيُّ ظالمٍ وأيُّ مظلومٍ يمثّلان؟

عَاصِمَةُ الانْكلِيْزِ وَهَيْكَلُ الظُّلْمِ الْمَشْؤُومِ

إن الأمرَ أهونُ من أن يحتاج إلى تفكُّر: قِفْ حيث شئت من البسيطة وولِّ وجهك شطر (لندن) عاصمة الانكليز حيث ترى سحابةً سوداء تبرقُ ظلماً وتمطر ظلاماً فهناك حيث ينفجر بركان الظلم يتطاير شررهُ في أنحاء الغبراء، وهناك حيث استقرَّ هيكلُ الظلم المشؤوم.

وإذا ما أردتَ أن تعرفَ المظلوم فما أراني مغالياً إذا قلتُ لك: كلنا بني الإنسان ذلك المظلوم، وفي مقدمة القوم نحن معاشر المسلمين، وليس ظالِمُنا غيرَ غرفِ السياسة في رُبوع لندن حيث يسجل الشقاء على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة؛ بتعاليم يضعُها أبناء السكسون ثم يخرجونَها إلى حيز العمل شيئاً فشيئاً كلما سنحت فرصةٌ وساعدت ظروف.

إن صدرَ الفضاء مجتمع أصوات البؤساء. فقِفْ وقفة المتسمعِ وأَعِرْهُ أذناً واعية تسمع صوتاً شجياً ما تزال تتناقلهُ الريح ثم تستودعه ذاك الصدر الرحيب. ذلك صوتُ الانسانية في شكواها تَئِنُّ من جور الانكليز أنيناً ولكن أكثر بني الإنسان عن ذلك غافلون.

إصْغِ إليه تارةً أخرى وافسح مجال الإصغاء بإمعان تسمعُ صوتاً آخر أشبه بحشرجةِ الموت تغلي في مراجل الصدور. ذلك أنه الموجع وصيحة البائس

وصراخ المستغيث من العالَم الإسلامي يضجُّ من جور الانكليز ضجيجَ الإبلِ عند المنحَرِ ولكن المسلمين في غمرةٍ ساهون.

كَشْفُ السِّتَارِ وَجَلَاءُ الأَبْصَارِ

رُبَّ قائل: تلك دعوى تحتاج إلى دليل. فَهَاتِ برهانَك إن كنــت مــن الصادقين.

فنقولُ: نحن ندعي أن للانكليزِ جناياتٍ على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة ونثبتُ ذلك من وجوه، ولكنا قبل كل شيء نضع الأمثال والأرقــام أمامَ عينيك – أيها القارئ المفكر – تتخذها أساساً لما نقيمــه مــن الأدلــة والبراهين. وكذلك نكشفُ الستار ونجلو الأبصار، نمثِّل لك الحقيقةَ بصورة لا تقبل الاشتباه، تراها بيضاء ناصعةَ الجبين، ولكنها مرتدية بحلَّة سوداء حزنــاً على الإنسانية واكتئاباً، ثم أسفاً على بؤساء مساكين يناهز عددهم رُبُعُ سكان البسيطة وهم على ظهرها مثلَ اليتامى، عائشون تحت وصاية من لا يبلغــون عُشر عددهم. وهذه هي الأرقام:

خُلَاصَةُ الإحْصَاءَاتِ
لِدَوْلَةِ بَرِيْطَانِيَا وَمُسْتَعْمَرَاتِهَا فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ
بِاعْتِبَارِ السُّكَّانِ وَالأَدْيَانِ وَالأَجْنَاسِ

أوَّلاً: إحْصَاءُ السُّكَّان:

٤٥,٦٢٣,٣٠١	سكان أوربا
٣٢٢,١٢٣,٨١٧	سكان آسيا

٥٢,٤٥٠,٠٧٦	سكان أفريقيا
٩,٥٠٨,١٨٥	سكان أمريكا
٦,١٣٩,١٢٢	سكان أوقيانيا
٤٣٥,٨٤٤,٥٠١	

ثَانِياً: إحْصَاءُ الأَدْيَانِ

٢١٩,٣٥٣,٢٦١	براهمة	
٨٧,٦٦٠,٣٦٦	مسلمون	
٣٠٧,٠١٣,٦٢٧		
٣٠٧,٠١٣,٦٢٧	جمع ما قبل	
٥٦,٠٥٤,٦٦٠	بروتستنت	نصارى
١٣,٠١٣,٣٦٥	كاثوليك	نصارى
٧٢٣,٣٢٢	أقباط	نصارى
٥٧١,٣٢٧	سريان	نصارى
٢٩٩,٦٠٧	روم أرثودوقس	نصارى
٢٨,٤٤٢,٥١١	وثنيون	
١٤,١٣٨,٧٣٤	بوذيون	
١٠,٢٩٥,١٦٨	عبَّاد الطبيعة	
٣,٠٢٢,٧١٦	سكهس	
١,٢٤٨,١٨٢	جانس	
٣٢٠,٠٥٤	يهود	
١٠,٠٠٠	فرس أتباع زراوسترا	
٨٨,١٦٩	لامايزم	
١٩,٤٨٥	كنفوشيون	
٤٩٣,٥٧٤	عقائد مختلفة	
٤٣٥,٨٤٤,٥٠١		

ثَالِثاً: إِحْصَاءُ الأَجْنَاسِ:

هنود	٣١٠,٦٩٨,٠٢٩
سكسون	٤٥,٣٧٠,٣٩٩
زنوج	٣٦,٤٨٨,٦٩٠
أوربيون	١٧,٢٦٤,١٣٨
عرب	١٠,٩٥٢,٦١٠
سنغاليون	٢,٦٧٦,٢٣٠
صينيون	١,٥٤٦,٤٢١
مايلويون	١,١١٠,٨٨٩
	٤٢٦,١٠٧,٤٠٦
أوستراليون أصليون	١,٠١١,٨٧٣
أقباط	٧٠٦,٣٢٢
تاميل	٥٩٩,٧٧١
سريان	٥٧١,٣٢٧
يونان	٢٦٤,٢٦٢
مغاربة	٢٦٠,٨٤٢
	٤٢٩,٥٢٢,٠٠٣
أميركيون أصليون	٢٢٤,٠٤٩
نقل حاصل الجمع	٤٢٩,٥٢٢,٠٠٣
الجنس الأحمر	١٦٣,٢٠١
برابرة	٢٥,٧١٤
لبكاس	٨٨,١٦٩
أوراسيون	٣٥,٨٩٤
لاسيس	٢٦,٠٠٠
سياميون	١٥,٠٠٠
	٤٣٠,١٠٠,٠٣٠

٤,٩٣١	كاديانس
١,٣٨٥	فرس
١,٠٦٩	دشن
٤,٠٢٣	الجنس الأصفر
٥,٧٣٣,٠٦٣	أجناس مختلفة
٤٣٥,٨٤٤,٥٠١	

الْجَوَامِعُ ثَلَاثٌ
وَطَنِيَّةٌ أَوْ دِيْنِيَّةٌ أَوْ جِنْسِيَّةٌ

لا نُكَلِّفُ من يطالبنا بإقامة الدليل على جناية الانكليز على الأمم والشعوب من بني الإنسان بأكثرَ من أن يمعن النظر في هذه الأرقام يعيرها طرف ناقد بصير، منصف غيور، يحمل بين جوانحه ضميراً طاهراً، يمجد الخالق ويقدس حقَّ المخلوق، يعرف ما الإنسانية ولا يجهل رموز الحياة ومناهج الشرف وأسرار الوجود[1].

لا مِرَاءَ في أن الأخلاق والعادات والأطوار والتقاليد تختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والاعتقاد؛ فرُبَّ طورٍ صالح لهذا العصر ثم لا يصلح لما بعده، ورُبَّ خُلق أَلِفَهُ قوم حتى رأوه فخاراً وربما كان عند غيرهم عاراً، كذلك العادات قاهرات وهي طبيعةٌ ثانية، ورُبَّ عادة تعارف عليها أهل بلدة

(١) التَّقْدِيْسُ التَّنْزِيْهُ:، وتقديسُ الله: تَنْزِيْهُ اللهِ عزَّ وجلَّ. والقُدْسُ: الطَّهَارَةُ، والقُدُّوسُ: الطَّاهِرُ الْمُنَزَّهُ عن العيوبِ والنقائصِ. وله معانٍ، والمراد بالتقديس احترامُ حقِّ المخلوقِ بالطاعةِ لله عَزَّ وَجَلَّ باتباعِ أوامره فيهم والانتهاء عن نواهيهِ. لسان العرب: ج ١١ ص٦٠-٦١.

فاستحسنوها، وأنكرها أهل بلد آخر فاستهجنوها، ثم حدِّثْ ولا حرجَ عن المعتقدات الراسخة والتقاليد الموروثة التي تحكم الضمائر وتمتزج بالعروق: فرُبَّ عمل حلال في دين، حرام في آخر، فيقبله زيد يعتقد أنه يقربه إلى الله ويحصل به على رضاه، ويرفضه عَمروٌ يعتقدُ أنه يبعده عن الله ويستحق به غضب مولاه.

فإذا ما فرَّقَ بين قومٍ وآخرين الوطنُ والجنس والاعتقاد فكانوا مختلفين في الأخلاق والعادات والتقاليد فكيف تضمُّهم حلقة التآلف يأنسُ بعضهم لبعض – وفي المثل أنا صَلِفٌ وأنت كَلِفٌ فكيف نأتلف! – ثم كيف يجتمع لهم شملٌ بارتياح نفس وصفاء ضمير واطمئنان بال؟

ثم لا مِرَاءَ أن الحكومةَ مرآةُ التشخص للشعب، فإذا لم يكن بينهما تماثل في الأخلاق أو العادات أو التقاليد فهل تستطيع أن تمثله على وجه يرضيه من دون تشويهٍ؟ وإذا لم تستطعْ ذلك أفلا تعدُّ هي ظالمةً له وهو مظلوماً؟

إنَّ مسألة الراعي والرعية ليست بالأمر الهيِّن: إن هناك تسطيرَ أقدار، فإذا كان بينهما اختلاف في التقاليد والعادات والأخلاق فكيف يخطُّ الراعي أقدارَ رعيته: أكما يريدُ هو؟ أم كما هي تريدُ؟ أم لا بأس أن يعبثَ قوم بأقدار آخرين ثم لا يسمى ذلك ظلماً وعدواناً؟

إنَّه لا بُدَّ من صلة بين التابع والمتبوع ولا بد من جامعٍ بينهما، ألا وإن الجوامعَ في مثل ذلك لا تخلُو عن ثلاث: أن تكون وطنيةً، أو جنسيةً، أو دينيةً. فإذا لم يكن بينهما شيء من هذا فماذا عسى أن يكون الجامع بينهما غيرَ ما نسميه عدواناً وظلماً؟

الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تعارف ائتلف وما تناكر اختلف، والتعارف إنما يكون باعتبار التماثل في الأخلاق والتقاليد والعادات، وبقدر تخالفها يكون

التناكرُ؛ فإذا ما حَكَمَ قومٌ آخرينَ وكانوا متناكرين باقتضاء هــذا النــاموس الطبيعي أفلا يكونُ ذلك تشويشاً على نظامِ الطبيعةِ ثم جوراً وعسفاً وظلمــاً وهضماً.

يَا زَمَانَ السُّوءِ! نَمْلَةٌ تَقُودُ جَمَلاً وَوَادٍ يَعْلُو جَبَلاً

إذا وعيتَ كلَّ ما أملينا عليك فارجع إلى الأرقام التي مثَّلناها أمام عينيك وانظر هل من جامع بين المتبوع والتابع؟ ثم نادِ باسمِ الإنسانية علــى أبنــاء السكسون إنَّهم قوم ظالمون.

علمتَ من الأرقام أن دولة بريطانيا ناشبةٌ أظفارها في القطع الخمس من كرة الأرض – أوربا، آسيا، أفريقيا، أمريكا، أوقيانيا – وأنَّها تحكــم رُبُــع سكان البسيطة عدداً. فلننظر إلى الأمم التي تمثل ذاك العدد الكبير: أَيَّتهُنَّ أوفرُ مالاً وأكثر رجالاً وأوسعُ بقاعاً وأخصبُ تراباً؟ ثم أَيَّتهنَّ الحاكمة التي بيــدها مقاليدُ الأمور، وأيتهنَّ المحكومةُ ليس لها من الأمرِ شيءٌ كأنَّها آلةٌ مسخرةٌ لا تبدئ ولا تعيد؟

هنا تُحَارُ الأفكارُ وتتقلبُ الأبصار: إذ يرى الإنسان عدداً نزراً يســتعبدُ عدداً كُثْراً، يرى شِرْذِمَةً من أبناءِ السكسون يسيطرونَ على ذلك العددِ كله وهم لا يبلغون منه عُشراً، فمتَى كان الواحد من بني الإنسان يعدلُ عَشراً؟

خَيْبَةُ اللهِ عليك يا زمان السوء..! نَمْلَةٌ تَقُودُ جَمَلاً ! وَوَادٍ يَعْلُو جَبَلاً!

أجل: خَيْبَةُ اللهِ عليك يا زمان السوء! (٤٣٥) مليوناً من أبناء آدم وحواء يحكمهم من بينهم ٤٥ مليوناً من أبناء السكسون.

يَا قَوْمِ ! لو كنتم نَملاً لأعجزَ جندَ سليمان تعدادُكم، فكيف وأنتم مــن صميم البشر من أبناء آدم الذين كرمهم اللهُ على كثيرٍ من خلقه تكريماً.

يَا قَوْمِ ! لو كنتم عصافيرَ من أضعف صنوف الطير وكنتم في عشٍّ واحد لأعجزَ الصيادين حَشْرُكُمْ في شبكة واحدة، فكيف وأنتم أممٌ عديدة عتيدة ثم ها أنتم هؤلاء منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها قد مَلَئْتُمْ الرحابَ مــن كل قطر من أنحاء المعمور.

يَا قَوْمِ، يا مئاتَ الألوف ألفَ مرة ! كيف هَانَ عليكم أن يسجِّل عليكم التاريخ مثل هذا الهوان؟ هبوا إنكم ضعفاء وأولئك أقوياء، ألــيس ضــعيفان يغلبان قوياً؟ ثم هَا أنتم أُوْلاَءِ أضعافُ أولئك عَشْرَ مرَّات، وكذلكم أنتم أوفرُ مالاً وأوفى خَراجاً وأوسع بقاعاً وأخصبُ تراباً وأفسحُ مفاوز وسهولاً وأشمخُ جبالاً وحزوناً[1]. ثم أنتم الأدنون وأولئك الأعلون، وَا خَيْبَتَاهُ.. وَا أَسَفَاهُ.. وَا حَسْرَتَاهُ.!

وَا خَيْبَتَاهُ يا هندي ! تعيشُ بين ظهرانِيّ (١٠) ملايين من إخوان وطنك وبني جلدتك في عقر دارك ومنبت أرُومَتك؛ ثم يخيِّم من فوق أرضك في سماء عزَّتك سحابُ الذل والهوان ممن لا يبلغون السُّدس منكم عدداً.

وَا أَسَفَاهُ يا بَرْهَمِيّ ! يعدُّ أبناءُ شجرك المقدس (٢١٩) مليونــاً ثم تتفيَّــأ ظلال الصَّغار تحت عصيِّ الاستعباد من (٤٥) مليونــاً لا تجمعُــك وإيــاهم جامعةٌ.

وَاحَسْرَتَاهُ يا مسلمُ ! كانت مِائتك بألف وواحدك بعشرةٍ – بنصٍّ قرآنك العزيز – حتى خفَّف اللهُ عليك فكانت مائتك بمائتين وواحدك بــاثنين. أمــا اليومَ فقد أصبح واحدُك نصفاً إزاء أبناء السكسون، كأنك وإياهم على حــدِّ

(١) الْحَزَنُ: مَا غَلُظَ مِنَ الأَرْضِ؛ وفي الدعاءِ: [وَتَجْعَلُ الْحَزَنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلاً].

آية الميراث[١] من قرآنك المجيد ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[٢] على حين أَنَّكُمْ رجالٌ كما أن أُوْلَئِكُمْ رجالٌ. فما هذا الذلُّ، وما هذا الصَّغار؟ ثم أين أنت من المنْزِلة التي أنزلكَها كتابُ الله الكريم!

وَا رَحْمَتَاهُ.. ثم وَا ذُلاَّهُ يا أبناءَ آسيا ! (٣٢٢) مليوناً من صميم ما أنبتَ ذاك الصعيد الطيب يأخذ بخناقكم، يعبثُ بأقداركم ثم يسومكم ضيماً وخسفاً سُبعكم عدداً من طغام أوربا، ينصبون لكم الحبائلَ ذات اليمين وذات الشمال يصطادونكم بها من بلدٍ شاسع ومكان سحيقٍ، ثم ها أنتم هؤلاء ثالثُ (الأذلَّين) على الضيم مقيمونَ وبالخسف أنتم راضونَ.

وَلاَ يُقِيْمُ عَلَى ضَيْمٍ يُـرَادُ بِـهِ ... إلاَّ الأَذَلاَّن عَيرُ الْحَيّ وَالْوَتَدُ[٣]

هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَـهُ أَحَـدُ

وَا مَسْكَنَتَاهُ يا أبناءَ أفريقيا ! (٥٢) مليوناً من أعزِّ ما أنبتت هاتيك الرمالُ الذهبيةُ قد ضيَّق عليكم الخناق وأحكمَ منكم الوثاق (٤٥) مليوناً من رُعاع ما أنبتت الجزرُ الأوربية، يقربونكم على مذابح الأهواء يسومونَكُم سوءَ العذاب، كأنما يمثلون فيكم روايَّة دورَ الفراعنة على شواطئ النيل في العصور الخالية، ثم أنتم على الْجَفَا صابرون وتحت نَيْرِ الاستعباد مستكينون، فَتُعْساً لك يا عصر المدنيَّة والنور!! ما أشبهكَ بعصور الوحشة والظلام..!

يا (٣٧٤) مليوناً يا أصحابَ هذا العدد الكبير من سكان آسيا وأفريقيا تحت سيطرة (٤٥) مليوناً من جراثيم التراب الأوربِّي ! هُبُّوا واحداً لواحد –

---

(١) في المطبوع: (آية التراث).

(٢) النساء / ١١.

(٣) العَيْرُ: الْحِمَارُ؛ أَيّاً كَانَ أَهْلِيّاً أَوْ وَحْشِيّاً. ومِن أمثالِهم: فُلاَنٌ أَذَلُّ مِنَ الْعَيْرِ. لسان العرب: ج ٩ ص٤٩٢.

وأنتم رجال كما هم رجال – فأين البقيَّةُ الباقية؟ أم لا ترونَها وصمةً كـــبرى أن يمتلكَ قومٌ رقابَ آخرين وهم أقلُّ من الثُّمُن منهم عدداً؟ ثم لـــيس بـــين الفئتين من جامعٍ غير ظلم المتبوع ومسكنة التابع.

أما وشرفِ الإنسانيةِ ومجدِ التاريخ يا أبناءَ آسيا وأفريقيـــا! إنـــه للعـــارُ والشَّنَارُ أن تكون بجانبكم الكثرةُ وأنتم الأذلاَّء، وبجانب مستعبديكم القلَّـــة وهم الأعزاء، يقودونكم بزِمَامِ الْهَوَانِ شأن الإنسان مع الحيوان وأنتم أجـــلُّ قدراً وأكرم محتداً.

أَيُّ جَامِعٍ بَيْنَ الْمَتْبُوعِ وَالتَّابِعِ؟

إذا عرفتَ أن هناك عدداً حقيراً يحكمُ عدداً كبيراً فـــانظر: أيَّ جامعـــة بينهما أوجبت لذاك أن يكون حاكماً وعلى هذا أن يكون محكوماً؟ كـــلاَّ.! ليس بينهما من جامعةٍ قط لا وطنية، ولا دينية، ولا جنسية:

إنَّ طينةَ أبناء السكسون مكوَّنة من تراب أوربا وهناك وطنـــهم الـــذي يقطنونه وماؤهم الذي يشربونه ثم هواؤهم الذي يستنشقونه، فـــأيُّ جـــامع وطني يجمع ما بينهم وبين أبناء آسيا، وهذه شرقيةٌ وتلك غربيةٌ و:

شَتَّانَ بين مشرِّق ومغرِّب؟

كذلك القولُ فيهم وفي أبناء أفريقيا وأميركا[1] وأوقيانا، بلادٌ ليس بعضها من بعض، ثم لكلٍّ منها تراب يكوِّن خَلقاً وخُلقاً غير اللذين يكوِّنهما تـــرابُ

(١) حينها كان أهلُ أمريكا تحتَ سيطرة الإنكليزِ وقد وقعوا فيهم تقتيلاً، حتى لم يبـــقَ من الهنود الحمر المسالِمين إلاَّ الشتاتُ المتناثرين.

أوربا وصعيد جزر بريطانيا العظمى (وَللبقاعِ في الطِّبَاعِ نَصِيْبُ)[1] فأيُّ جامعةٍ وطنية بين أبناء هذه الأقطار المترامية الأطراف وبين أبناء هاتيك الجزر الأوربية كيما يبسطُ أولاد السكسون جناحَ رأفتهم !! على أولئك البائسين من وراء جبال شامخات وبحار طَامِيَاتٍ ومجاهل ومنازل مُقْفِرَاتٍ آهِلاَتٍ، وبين الفئتين بُعْدَ المشرِقَين!

يَا قَوْمِ ! ما أرى مثلكم ومثل أبناء السكسون إلا كطيور السماء وأسماك البحار: يُرَيْنَ بعيدات المنال ما إليهن من سبيل، ثم يصطادهنَّ صعلوكٌ من المتشردين يقضي على حياة تلك ببندقية لا تساوي نصفَ دينارٍ وعلى حياة هذه بما هو أحقرُ قيمةً، وهو جالس في محلِّه فوق صخرة صمَّاء أو تحت شجرة خضراء، وهما في قعرِ البحر وفي جوِّ السماء، فَيَا خيبةَ الإنسان إذا ما أشبهَ الطيور والأسماك من الحيوان..!

كذلك ليس بين التابع والمتبوع جامعة دينية ثم ولا مذهبيَّة: فإنك ترى من الأرقام أن مجموع النصارى = (٧٠,٦٦٢,٢٨١) بينما ترى عدد البَرَاهِمَةَ فقط: = (٢١٩,٣٥٠,٢٦١) وعدد المسلمينَ = (٨٧,٦٦٠,٣٦٦) وكذلك البقيةُ الباقية ليس بينهم وبين النصرانية من جامع. ثم أولئك النصارى أنفسهم رُبعهم يباين الحاكم في المذهب: فَشَتَّانَ ما بين البروتستانية وبين الكاثوليكية والأرثوذوقسية كما لا يجهل ذلك من له إلمام بها تيك المذاهب وما بينها من الاختلافات العظيمة ثم ما بين ذَوِيْهَا من الأضغان والأحقاد.

ليسطرنَّ تاريخ الأديانِ أنَّ أحدَ عَشَرَ ديناً يعبثُ بأقدار من يقدسونَها أهل دينٍ واحد وأولئك أكثر عدداً، وأن مذهباً واحداً يسيطرُ على خمسة عشر

---

(١) قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا﴾. [الأعراف / ٥٨].

مذهباً وهو أحدثُهم عهداً. ثم من وراء ستار السياسة يطارد الأَقَلُّونَ الأَكْثَرِيْنَ[١] في أديانهم ومذاهبهم ليزلزلوا منهم العقائد ويعبثوا منهم بالضمائر من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

كذلك ليس بين التابعِ والمتبوع جامعةٌ جنسيةٌ، إنَّهما على حدِّ قول الشاعر:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلاً ... عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

فَهِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ ... وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

ناشدتُكَ اللهَ وحُسن الرويَّة ونزاهةَ الضميرِ: أيُّ تَجَانُسٍ ترى بين الانكليزي وبين الهندي أو الزِّنْجيِّ أو العربيِّ، ثم بينه وبين الأوسترالي أو المغربي أو البربري؟ ثم أيُّ تشابه ترى بينه وبين الجنس الأحمر أو الأسود أو الأصفر؟

خليطةٌ غيرُ متجانسة، ومزيجٌ ليس بين أجزائه تقريب، ثم تكليف للطبيعة بما تَنْبُو عن مظانه دساتيرُها[٢].

---

(١) لا يعزبُ عن فكرِ القارئ جمعياتُ التبشير البروتستانية وفرطُ مساعدة انكلترا لها وتعزيزها هذا المشروعَ الديني والمذهبي. وليس قصدُها من ذلك خدمةَ الدين المسيحي أو المذهب البروتستاني، بل هي السياسةُ تدعوها لتشوِّش على الناس معتقداتهم علماً منها أن الأديانَ والمذاهب أكبرُ جامعٍ وأكبر مفرِّق فإذا اطفأت جذوةَ العواطف الدينية بمثل هاتيكَ الوسائلِ أمِنَتْ من كثيرٍ من الغوائل السياسيَّة في مستقبلِ الأيام. (حبيب).

(٢) ولمثل هذا يصحُّ للاجتماعي المدقق أن يحكمَ بأن أقرب الدول إلى الانحلالِ والتبعثر وشتات الشَّملِ وضياع العظَمة والبهاء هي الدولةُ البريطانية كما ستقفُ على تفاصيله. (حبيب).

قلتُ: وبعد أن حصل؛ فإنَّها لم تترك الساحةَ الدولية، فما زالت بريطانيا تكيدُ للعالم تحاول إرجاع مكانتها في السيطرة والاستعمار.

يقولُ الشاعر: إنَّ الطُّيُورَ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ.

كلمةٌ شعرية ولكنها نفثةُ الطبيعة لا شعوذةُ الخيال، فليت شِعْرِي كيـــفَ صَبْرُ هاتيك الأمم والشعوب على تكاليف الحيـــاة تحـــت ســـيطرة مـــن لا يُجَانِسُونَهَا أصلاً وشكلاً ثم ليس بينهما من مقرب جثماني ينبته أديمُ الأرض، أو روحاني يؤيدهُ هاتفُ السماء؟[1]

تدخلُ المرأةُ الغرفةَ فترى رُكاماً من الأثاث والمتاع والرِّيَاشِ، فتأخذُ تفرِّق بينهنَّ وتجمع، تنظيماً لهيئة الغرفة ثم تجويداً وتحسيناً، فلا تكادُ ترَاها تجمع بين شيئين غير متجانسين، بل تجدُها تضمُّ الثوبَ مثلاً إلى مثله والقنديل إلى أخيه والوِسَادَةَ إلى أختها. وكذلك يقفُ الرجل على رأس منضدته فلا يضع بجانب الدَّواة وعاءَ العطرِ مثلاً، بل يضع هناك القلم والقِرْطَاسَ، والعطرَ يضعهُ بجانب المشطِ والمرآة. ثم إنك تراهما يفعلان ذلك لا عن سابقٍ فكر وتَرَوٍّ خاصٍّ، بل بسائق من نفسهما غاية ما يقال عنه أنه من نواميس الطبيعة ينـــدفعان معـــه اندفاعاً.

هذه الجماداتُ التي لا تدري ما التعارف والتآلف وما التناكر والتشـــاجُر ولا يترتب أمر ذو بال على حشرها أجناساً متشابهة أو أشكالاً مختلفة نَـــرى الطبيعة تَنْزِعُ إلى حفظ التجانس بينها في استقرار مقاعدها، فكيف بالإنسان الذي يحسُّ بالبؤس والنعيم ويتغذّى بالروحانيات أكثر من الجسمانيات فأكبر نعيمه الإلفة وأشدُّ بؤسه الوحشةُ، والنفس تأنسُ حيث حال أنيسها، وهيهات أن يأنسَ إنسان بمن لم يكن على شاكلته و لم تجمعه وإياه جامعـــة. ألا إنـــه العذابُ الشديد الذي أوعد به الْهُدْهُدَ سليمانُ عليه السلام[2] إذ تفقّدَ الطيرَ.

---

(١) أراد إنْ لم تكن الرابطةُ عقائديةً تقوم على أصلٍ من دِين، لا أصل عِرْقِيٍّ أو طبقي أو لوني، فكيف ستتعارفُ هذه الألوان واختلاف الألسنة؟.

(٢) قال المفسِّرون في قوله: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ [النمل / ٣٠] عنَـــى بـــذلك ≺≺

ثم الطامةُ الكبرى أن العلاقة بينهما – أي بين أمة الانكليز وبين هاتيك الأمم والشعوب – علاقة سَيْطَرَةٍ وتَحَكُّمٍ وَتَجَبُّرٍ وَتَكَبُّرٍ واستبدادٍ واستعبادٍ، مما يزيدُ في الطُّنْبُورِ نغماتٍ وفي الطين بَلاَّتٍ. وسيمرُّ بك من عجرفة الانكليز وغطرستهم[١] خصوصاً إزاء رعاياهم البائسين ما يوضح لك ذلك.

عجيبٌ أيتها الأمم البائسة ثم عجيب: أربعة وعشرون قبيلاً يحكمكم بل يتحكمُ فيكم قبيل واحد لم تجمعكم وإياه جامعةٌ ما: لا وطنية ولا دينية ولا جنسية.. تَعِسَتْ بُوتَقَةٌ تُذابون فيها ذوب النحاس وأنتم من خالص الإبْرِيْزِ[٢].

هَلْ بَيْنَ الْمَتْبُوعِ وَالتَّابِعِ تَبَادُلٌ فِي الْمَنَافِعِ؟

علمتَ حقَّ العلم أن ليس بين الانكليز وبين الأمم التي يحكمونَها من جامعةٍ قط لا وطنية ولا دينية ولا جنسية؛ ولكن بقي أمرٌ آخر جديرٌ بالعناية والذكر، ألاَ وهو تبادل المنافع، فلننظر هل ثَمَّةَ شيء من ذلك بين المتبوع والتابع؟

للأممِ مصالِحٌ ومنافعٌ كالأفرادِ، وهي في معترك الحياة أشبهُ بالْمِحْوَرِ،

حَبْسَهُ مع غير جنسه. (حبيب).

قلتُ: في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٨٠؛ قال القرطبي: (وقيل: تعذيبهُ أنْ يجعل مع أضداده. وعن بعضم: أضيقُ السجون معاشرة الأضداد).

(١) الْعَجْرَفَةُ: الْجَفْوَةُ فِي الْكَلاَمِ، وَالْخَرْقُ فِي الْعَمَلِ، وَالسُّرْعَةُ فِي الْمَشْيِ. وَالْغَطْرَسَةُ: الإِعْجَابُ بِالشَّيْءِ وَالتَّطَاوُلُ عَلَى الأَقْرَانِ. وَالْمُتَغَطْرِسُ: الظَّالِمُ الْمُتَكَبِّرُ، وَتَغَطْرَسَ: إِذَا تَعَسَّفَ الطَّرِيْقَ، وَرَجُلٌ مُتَغَطْرِسٌ: بَخِيْلٌ. لسان العرب: ج ١٠ ص٨٧.

(٢) أراد أمم غير السكسون، لأنَّها كانت في غالب أحوالها تدافعُ عن رأي أو تحمي ذاتَها بأسباب قناعاتِها، أما أمةُ السَّكسون فإنَّها ترى في نفسها أنَّها أمةُ السيادة والناس عبيدها.

عليها تدور رَحَى الأعمال، فلا تكادُ ترى حركة أو سكوناً يصدران عن ذي اختيار إلا وسهامهما مُفَوَّقَةٌ نحو ذلك الهدف الوحيد: المنفعــةُ.. وإن شــئت فَقُلْ: المصلحةُ!

أَجَلْ، المصلحةُ هي غاية الغايات[1] وهي التي تُفَرِّقُ وتجمعُ على حســب اتحادها واختلافها حتى أنَّها لتجعل البعيدَ قريباً والقريب بعيداً والعدو حميمــاً والصديقَ خصيماً، نظامٌ حيوي وسُنَّةٌ من سنن الكون بِهما تماسكت أركــان الحياة وعلى دعائمهما قامت صُرُوحُ الانتظام وتأسَّسَ بنيانُ العمران؛ ثم مــن وجهتهما أتى التَّنَازُعُ في البقاء.

ولكن مِلاَكَ الأمر في المنافعِ التبادلُ وفي المصالح التقابلُ، وإلا كان حَيْفــاً وظُلماً وعَسْفاً وهَضْماً، من هذا القبيل حال الانكليز مع رعايــاهم: حَيْــفٌ وَعَسْفٌ وظلمٌ وهَضْمٌ.

إن للانكليز من أولئك المنكودي الطالع منافعَ لا تحصــى ومصــالح لا تُسْتَقْصَى، ولكن ماذا عسى أن تكون مصلحة هؤلاء البائسين مــع أولئــك الجائرين؟ ثم ماذا عسى أن تكون منفعةُ المظلوم من ظالمه؟

لا مِرْيَةَ أنَّ الربحَ والْخُسْرَ ضِدَّانِ لا يجتمعان، فلا يمكن لاثنين أن يــربح كل منهما من الآخر دون أن يختلفَ مورد الربح بينهما؛ لأن ربح كل منهما يعدُّ خسراً بالإضافة إلى الآخر ولا يمكن أن يكون الإنسانُ رابحاً خاسراً مــن وجهةٍ واحدةٍ في آنٍ واحد -لأنَّهما ضِدَّانِ لا يجتمعان كما عرفتَ- فلا بــدَّ إذن من اختلاف المورد في الربح والخسر على سبيل التعويض وهو المســمَّى بتبادلِ المنافعِ.

(١) أما كونُها شريفةً أو غير شريفة، مشروعةً أو غير مشروعة فشيء آخر سيمرُّ بــكَ بيانه. (حبيب).

إذا عرفتَ هذا فنقولُ: كل شيء تربحهُ دولة بريطانيا من مستعمراتها يُعَدُّ بالإضافة إليهم خسراناً فيجبُ أن يكون لَهم موارد للربح أُخر يَعْتَاضُونَ بهـا عما لَحِقَهُمْ من الخسران في غيرها كيما يتم التبادل في المنافع، وإلاّ كان هناك فريقان: رابح لا يعرف ما التعويض - وهذا أقصى درجات العسف والجـور والجشع والاستئثار- وخاسرٌ لا يدري ما الربح -وذلك هو الخسران المبين- والفريقُ الأولُ: هم الإنكليز، والفريقُ الثاني: هم أولئك الأمـم والشـعوب الذين تحت أثقال استبدادهم يَرْزَحُونَ.

فَهَلُمُّوا للحساب أيها الفريقان، منكم شقيٌّ ومنكم سعيدٌ..!

كَيْفَ يَسْعَدُ الإنْكليْزُ بِشَقَاءِ مَنْ تَحْتَ يَدِهِمْ مِنَ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ

إنَّ للإنكليزِ أرباحاً مضاعفةً من هؤلاءِ البائسين من دون تعويضٍ، ولهؤلاء المساكين من أولئك الغاشمين خسرانٌ متراكمٌ بعضهُ يَلْعَنُ بعضاً، وهكذا سَعِدَ قوم بشقاء آخرين.

تعاقدَ الفريقان!! فربحَ الإنكليزُ من هؤلاء الأغرار أوطـانَهم وأمـوالهم وأرواحهم ومجدهم وشَرَفهم وكلَّ حقٍّ لهم مادياً كان أو أدبياً، وكل ما ربحهُ أولئك كان لهؤلاء خسراناً-لما قررناه آنفاً- وكذلك كانت الصفقةُ خاسرةً، وهكذا سَعِدَ قوم بشقاء آخرين.

رُوَيْداً أيتها الأمم المظلومة رُوَيْداً.. وَهَلُمُّوا للحساب يَا قَوْمِ.!

كَيْفَ رَبِحُوا أَوْطَانَكُمْ؟

هذهِ أوطانُكم إلى من تُنْسَبْ، إليكم أَمْ إلى الإنكليزِ؟ ارجعوا إلى صحائف التاريخ وسجلاَّت السياسة والخطوط الجغرافية تعلموا إنَّما يقالُ لها: مستعمراتٌ إنكليزيةٌ. لأوطانكم شؤونٌ وأقدار داخلية وخارجية، فأيُّكُما يدبِّرُ هاتيك الشؤون ويسطِّرُ هاتيك الأقدار، أنتم أم أبناءُ السكسون؟ لا أقلَّ من فتح طريق أو سدِّهِ مثلاً، فإذا اختلفتم في أوطانكم مع الإنكليز في مثل هذا فلمن تكون الكلمة النافذة، وأيُّكُما الذي يفعل ما يريد؟ اذكروا دماءً لكم سفكَتها حِراب الإنكليز[1] في مثل تلك السبيل ثم قولوا: أمِنَ الصواب أن تُسمَّوا هَاتيكَ البقاعَ لكم أوطاناً؟ إذا ما كانت مساحة تلك البقاع آلاف الألوف من الفَرَاسِخِ ثم عجزتم أن تتصرفوا منها بمساحة أذْرُعٍ معدودات فيما يخصُّ مقدساتكم ويَمَسُّ بشعائركم الدينية يوم قوَّضُوا لكم معابدَ وهدموا مساجدَ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ فهل من التَّعَقُّلِ أن تسموها لكم بلاداً وتعتبروها أوطاناً؟ أم نقولُ: هي أوطانكم ولكنكم فيها غرباءُ؟ هذه بلادكم أيُّ الفريقين بخَيْرَاتِهَا متمتعون وبآلائِها متنعمون، أنتم أم الإنكليزُ؟ هل تستطيعون إبْرَاماً أو نقضاً فيما يخصُّ ذاك الصعيد؟ بل هل تستطيعون أن تُبْدُوا رأياً في مثل ذلك؟ أم ليس لكم من الأمر شيء، وإنما بيدِ الإنكليز مقاليدَ الأمور؟

تَعْسَ حظٍّ أجلسَكُم تحت قول الشاعر:

---

(١) يشير إلى حادثة وقعت في الهند إذ أرادت حكومةُ الإنكليز توسيعَ طريقٍ على قارعته مَعْبَدٌ وَمَسْجِدٌ فَأَبَى هدمهما من يقدسونَهما وأصرَّ الإنكليزُ حتى انتهت الحادثةُ بقطرات من دمِ المظلومِ سفكتها يدُ الظالمِ وكان الذي أرادهُ الإنكليز لا الذي أرادهُ أبناءُ الوطنِ العزيزِ. (حبيب).

يَا حَامِلَ القَلْبِ لَمْ يَمْلِكْ إِرَادَتَهُ وَصَاحِبَ الرَّأْيِ لَمْ يُسْأَلْ وَلَمْ يُجِبِ

أم بعدَ كُلِّ هذا تعدُّون ذاك الصعيد لكم وطناً، وترون أنفسَكم فيه أحراراً؟ أما إنكم في عُقْرِ داركم غرباء، وفي مضاجعكم أنتم مأسورون.

كذلك ربحَ منكم الإنكليزُ أوطانَكم يَا قَومِ، وهكذا سَعِدَ قوم بشقاء آخرين.

كَيْفَ رَبِحُواْ أَمْوَالَكُمْ؟

لَيْتَكُمُ اطلعتُمْ على خزائن الإنكليز وحاسبتم وزير المال يوماً. هناك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة يعيش منها أبناء السكسون العيش الرَّغَدِ ويتقلبون بها على فُرُشِ النعيم، وما هي إلاّ ثمرات أتعابكم، كَدِّ يمينكم وعرق جبينكم، تقدمونَها كأساً رَوِيَّةً لأبناء الإنكليز حتى إذا أسكروا بخمرتها تاهوا عليكم إعجاباً وغروراً. ما لكم ولوزير المال تحاسبونهُ؟ حاسِبُوا أنفسَكم فهي بذلك أجدرُ، إن المعطي الذي يجود بِكَدِّ يمينه أحرى من الآخذِ أن يعرف ماذا أعطت يداه. لَشَتَّانَ ما بين الاثنين: مُعْطٍ عن نَصَبٍ وعناءٍ، وآخذٍ براحة وهناءٍ: تجمعون المال كادحينَ وتعطونه صاغرين ثم يأخذه الإنكليز عالين وينفقونه مُترفين.

هذه إحدى طَرَائقِ ابْتِزَازِ الإنكليزِ أموالَكم باسمِ الضَّرَائبِ وتحت ستار السياسةِ. وأما ابتزازُها باسم الْمُرَابَاةِ وتحت ستار التجارة والمساهمات وغير ذلك من ألاعيب الْجَرِّ وطرائق الاقتصاد فأمرٌ يطول بحثه ولا يستقصى شرحه، ولكن الذي يمثلهُ أحسنَ تمثيل ما يقال في أيتام مساكين وقعوا في حِبَالَةِ وصيٍّ لا يعرف ما المروءة، لَبِسَ الإسرافَ وخَلَعَ الإنصافَ.

لَيْتَهُمْ إذ نَهبوا وسلبوا لم يَضُنُّوا عليكم بالكَفَافِ من العيش، ولكن

المروءةُ الإنكليزية!! كانت أقلَّ من أن تجودَ عليكم بمثلِ تلك الرحمةِ فلا تُميْتُ أناساً منكم جوعاً.

شُهَدَاءُ الْجُوعِ وَضَحَايَا الْجَشَعِ الْبَرِيْطَانِيِّ فِي الْهِنْدِ

بعد ما نشبت مَخَالِبُ الحكم البريطانيِّ في الهند مات فيها(٣٧،٥٠٠،٠٠٠) نفس جوعاً خلال قرن واحد من (١٨٠٠-١٩٠٠ميلادية). وتفصيله كما جاء في صحيفة ١٣١ من كتاب (الهند البريطانية السعيدة!!).

٥ مجاعات من سنة ١٨٠٠-١٨٢٥ فُقد فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريباً.

٣ مجاعات من سنة ١٨٢٥-١٨٥٠ فُقِدَ فيها ٥,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريباً.

٦ مجاعات من سنة ١٨٥٠-١٨٧٥ فُقِدَ فيها ٥,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريباً.

١٨ مجاعة من سنة ١٨٧٥-١٩٠٠ فُقِد فيها ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريباً.

٣٢

ثم كلما استحكمت حلقاتُ الحكم البريطاني وتأصَّلت عروقهُ زادَ الغضبُ وعمَّ البلاء حتى طَفَحَ الكيلُ ومات جوعاً في الهند وضواحيها في مدة عشرة أعوام (١٩,٠٠٠,٠٠٠) وذلك من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ فيكون مجموع شهداء الجوع وضحايا الجشع البريطاني في الهند خلال (١٠) أعوام (٥٦,٠٠٠,٠٠٠) نفس. هذا عَدَا من يموتون ضحايا الأوبئة والأمراض السَّارية والعِلَلِ الْمُزْمِنَة وبقية الأمراض مما لا تكاد تخْلُو عنه أصقاع الهند ولا تزالُ تنقل إلينا الأخبار فَتْكه الذريع بِها تيك الأرواح الضعيفة والنفوس البائسة؛ لاشتغالِ سادتِهم الإنكليز عن منافعهم ومصالح بلادهم التي يجبُ أن يعودَ خيرُها إليهم بمنافع أنفسهم التي لا يهمُّهم سوى مصالحها. و من مُتَمِّمَاتِ تلك المصالح أن يعيش أولئك المساكين تُعساءً بؤساءً كيما يُلْهِيْهِمْ بؤسُهم وينسيهم أنفسَهم أن

يفكروا لها فيما يُنْجِيْهِمْ من مخالبِ الحكم البريطاني ونَيْرِ الاستبداد الإنكليزي.

هَذَا! ولنقف بك الآن على إحصاءٍ آخر. ثم نَسُومُكَ المقارنةَ بين الإحصائين. وهنالك نَدَعُ الحكمَ لضميرك أيها المدقِّق المنصفُ: لقد ثبت بالإحصاء أن النفوسَ التي هلكت بسبب الحروب في بضع ومائة سنةٍ اعتباراً من سنة ١٧٩٣-١٩٠٠ في جميع أقطار العالم هي (٥,٠٠٠,٠٠٠) وقد عرفتَ أن الذين ماتوا جوعاً تحت سيادة الإنكليز في قطر واحد وفي مثل تلك المدة هم (٥٦,٠٠٠,٠٠٠) فإذا ما قارنتَ بين الإحصائين وتحقّقتَ أن ضحايا الجشع البريطاني في إقليمٍ واحد تَرْبُو على ضحايا الحروب في سائر أنحاء البسيطة إحدى عشرة مرَّة أمكنكَ الحكم بأن السيادة الإنكليزية أكبر ضرراً وأشدُّ فتكاً على بني الإنسان من رؤوس الحراب وأفواهِ المدافع ولَهَبِ النيران أضعافاً مضاعفة.

ولكي يتحققُ لديكَ أنَّ هَاتِيْكَ الملايين من شهداء الجوع في الهند أنْ هم في الحقيقة إلاّ ضحايا الجشع البريطاني رأينا أن نُوَافِيَكَ بإحصاءٍ ثالث قَبْلَمَا وقع لحمُ الهنديِّ البائس تحت سكين الإنكليزي القاطعة، ثم نأتيك بشهداء على ذلك يشهدون. وهذه صورةُ الإحصاء كما جاء في الصحيفة ١٢٣ من كتاب (الْهِنْدُ الْبَرِيْطَانِيَّةُ السَّعِيْدَةُ).

		في الجيل
٣	مجاعة عامة	١١
١	في نواحي دلهي	١٣
٣	عامة	١٤
٢	عامة	١٥
٣	عامة	١٦
٣	عامة	١٧
٤	في الأقاليم الشمالية	١٨
١٨		

فقد اتَّضَحَ لديكَ من هذا الإحصاءِ ومن الإحصاءِ السَّابقِ أنْ قد حصلَ في الهند قبل أن نَشَبَتْ بها أظفار الحكم البريطاني (١٨) مجاعةً في سبعة قـــرون وبعدما أسعَدَها الحظ!! بالسيادة البريطانية حصل فيها (٣٢) مجاعة خلال قرنٍ واحد، وإنما الأرضُ تلك الأرض والسماء تلك السماء في كل القرون، ولكن هو الجورُ الإنكليزي والجشعُ البريطاني ثم الاستعبادُ السكسوني، هذه الجراثيمُ السَّامَّةُ هي التي أنْهَكت من هذا الجسم العظيم قِوَاهُ. وإليك شهادةُ الشهداء:

قال ج.ث سندرلند في كتابه (أَسْبَابُ الْمَجَاعَة فِي الْهِنْد) وأكد ما قالــه كغيره من المصنفين في هذا الصَّدَد، قال: إِنَّ الْمَجَاعَةَ فِي الْهِنْد لَمْ تَكُنْ مُسَبَّبَةً عَنْ قِلَّة الأَمْطَار أَو ازْدِيَاد عَدَد السُّكَّان، بَلْ أَنَّ السَّبَبَ الْوَحِيْدَ فِي الْمَجَاعَـــة إِنَّمَا هُوَ ذَلكَ الْفَقْرُ الْمُدْقعُ الْمُحيْطُ بِالْهُنُود، الَّذي سَبَّبَتْهُ لَهُمْ تِلْكَ الضَّـــرَائبُ الْفَادحَةُ لِلْغَايَة، وَالسُّلْطَةُ الْبَرِيْطَانِيَّةُ الْهِنْدِيَّةُ، وَالْقَضَاءُ عَلَى الصَّنَايِع الْوَطَنِيَّة.

وقال السير وليم هنتر. ك.ث.س.ي في مُؤَلَّفه (مَجْلسُ الْــوُكَلاَءِ) ســـنة ١٨٨٣ قال: إِنَّ تَقْدِيْرَ الْحُكُومَة لاَ يَسْمَحُ بِأَنْ يَتْرُكَ الْغذَاءَ الْكَافِي لِلْفَــلاَّحِ وَعَائلَته فِي بَحْرِ السَّنَة.

وقال المستر هدبرت كومبتون في كتابه (حياةُ الهندي) ١٩٠٤ قال: إِنَّــهُ لاَ يُوجَدُ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْمَمْلَكَة الْبَرِيْطَانِيَّة صُورَةٌ هِيَ أَشَدُّ تَأْثِيْراً مِنْ صُورَةِ الْفَلاَّحِ الْهِنْدِيِّ، فَلَقَدْ يُسيءُ سَادَاتُهُ مُعَامَلَتَهُ وَيَظْلِمُونَهُ وَهُوَ يَظَلُّ يَشْتَغلُ حَتَّى يُفْنِي كُلَّ شَيْءٍ اللَّهُمَّ إلاَّ نُخَاعَ عِظَامِه(١).

إِيْضَاحٌ

إنَّ المجاعةَ في الهند أولاً وآخراً لم تكن منبعثةً عن أسباب طبيعية، بل قطرُ

(١) هذه النقول والإحصاءات مقتبسة من جريدة العدل. (حبيب).

الهند غنيٌّ بذاته، وفي صعيده من قوَّة الإنبات ما يكفلُ لبنيــه رَغَــدَ العــيش ورفاهية البال، فإن الأراضي المتوسطة هناك تُؤتِي أُكُلَهَا في العــام مــرتين، وبعضها ثلاث مرات في (بنغال) و (بنجال) وحدها قد تعطي من المحصولات في العام ما يكفي عامة سكان الهند مدة عامين. وإنما سبب هاتيك المجاعــات وسائط النقل من قبل ومن بعد: أما قبل السيادة الإنكليزية ففقدانُها، وأمــا بعدها فتوفرها. وليتَ الهندَ بقي على ما كان عليه من فقد وسائط النقل فقد كان الخَطْبُ أسهل والشرُّ أهون-كما تشهد بذلك الإحصاءات التي وضعناها أمام عينيك- فإن بواخر النقل الإنكليزية لم تعمل لخير هاتيك البلاد ليتمتــع بعضها بخيرات بعض، بل زادت في بلاء الأصقاع الْمَاحِلَة[1] وسلبت البلــد الغنيَّ غِنَاهُ بما تنسفه نسفاً من خيرات البلاد تشرِّق به وتغرِّبُ تسدُّ جشعَ أبناء السكسون وتدعُ ابن ذاك الصعيد يموتُ جوعاً. أضــف إلى ذلــك (١٧٥) مليوناً من الذهب الأحمر تخرجُ من البلاد في كل عام من حيث لا يدخل إليها درهم واحد، وهي الضرائبُ البريطانيةُ الفادحةُ التي أثقلت ظَهْرَ الهنديِّ حــتى نخرت عَظْمَهُ. ثم لا تَنْسَ قضاءَ التجارة الإنكليزية على الصنايع الوطنية حــتى جففت من منابع الرزق لابن الوطن ما كان مَعيناً. تلك الجراثيم من الجــور البريطاني والجشع الإنكليزي هي التي بَرَّحَتْ بذاك القُطر العظــيم وتركــت أبناءه يموتون جوعاً.

كذلك ربحَ منكم الإنكليز أموالَكُم يَا قَوْمِ، وهكذا سَعِدَ قــومٌ بِشَــقَاءِ آخَرِيْنَ.

---

(١) الْمَحْلُ فِي الأَصْلِ: انْقِطَاعُ الْمَطَرِ، وَأَمْحَلَتِ الأَرْضُ: أَجْدَبَتْ فَصَارَ لاَ يُنْتَفَعُ بها . لسان العرب: ج ٣ ص٣٩. يريد زادت الأراضي التي لا ينتفعُ بها أهــلَ البلــد، وصار النفعُ للكافر المستعمر في بلادِ الهند الإســلاميَّة لا لأهلــها مــن المســلمين والذميين.

كَيفَ رَبِحُواْ أَرْوَاحَكُمْ؟

لم يَكْفِ الإنكليزَ غصبُهم الأوطان وسلبُهم الأموال، بل تسلَّطُوا على الأرواح كذلك يلعبونَ بها لَعِبَ الصبية بالأُكَرِ[1] يُدَحْرِجُونَهَا حيث شاؤوا وشاءَ الصَّوْلَجَانُ. أعزُّ الأشياء وأغلاها ثمناً ما ليس عنه عِوَضٌ، وذلك هو الحياة والروح لَمْعَةٌ من لمعات الحق أَكْبَرَتْهَا قوانين الأرض وقدَّستها نواميسُ السَّمَاءِ فلا تُزْهَقُ في سبيل الباطل. ألا وإن شرَّ العباد مَنْ يُتَاجرُ بأرواح العباد، وأولئك هم الإنكليز: إنَّهم يسوقون أبناء المستعمرات إلى ساحات القتال فَتُرَاقُ دماؤهم وتُزهق نفوسهم في سبيل غايات لا علاقة لهم بها إلاّ ما كان من جشع أبناء الإنكليز يقربونَهم ضحايا على مذابح هاتيك الغايات السافلة.

مَنْ أمعنَ النظرَ وأعملَ الفكرَ فلا يكادُ يَعْجَبُ من شيء عَجَبَهُ من الأوسترالي والزِّنْجِيِّ والعربيِّ والهندي البُوذيِّ أو البَرْهَمِيِّ أو غير ذلك إذ يقفون في مصاف الحرب ويخوضون غمار الموت تقاتلون مع أبناء الإنكليز جنباً لجنب، وليس لهم من ذلك فائدة قط لا وطنية ولا دينية ولا جنسية. وإنما هي نفوسٌ يبيعونَها رخصاً ودماءً يسفكونَها هدراً.

الموتُ مرٌّ فلا يقتحمه الإنسان إلاّ في سبيل ما كان أمرَّ منه، ولا شيء أمرَّ من الموت غير الضَّيْمِ والهوان. والحياة عزيزةٌ فلا تُباع إلاّ في سبيل ما كان أعزَّ منها، ولا أعزَّ من الحياة غير الشرفِ، وهو إمَّا وطنيٌّ، أو دينيٌّ، أو جنسيٌّ،

(١) الأَكَرُ: الْحُفَرُ فِي الأَرْضِ؛ وَاحِدَتُهَا أُكَرَةٌ. وَيُقَالُ: أَكَرْتُ الأَرْضَ؛ أَيْ حَفَرْتُهَا. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ لِلْكُرَةِ الَّتِي يُلْعَبُ بها : أُكَرَةٌ. وَاللُّغَةُ الْجَيِّدَةُ: الْكُرَةُ. لسان العرب: ج ١ ص١٦٩.

فليتَ شِعْرِي عندما يقاتلونَ مع الإنكليز جنباً لجنب يا أبنـــاء المســـتعمرات الإنكليزية من هنديٍّ وأوسترالِيٍّ وزنجيٍّ وغير ذلك، ففي سبيل أيَّة غاية ترخص لديكم حياتكم العزيزة؟ وتخلُّصاً من أيّة مرارة أشدُّ من الموت تستعذبون مـــن أجلها مرارةَ الموت؟ أفراراً من الضَّيم والهوان؟ أما إنَّهما لاحقان بكـــم مـــن الإنكليز الذين تقاتلون معهم، فإن كنتم من الذين يأبون الضَّيم ولا يرضـــون بالهوان فأجدرُ بكم أن تقاتلوا الإنكليزَ لا أن تقاتلوا معهم تعزِّزون سلطانَهم وتؤيدون شوكتَهم ليزيدوكم ضَيماً وهواناً. ألا إنَّ عملَكم هذا لَعَلَى طَرَفَـــي نقيضٍ مما يُحَتِّمُهُ الواجب ويقضي به قانون الطبيعة. ثم أيُّ شرفٍ وطـــني أو دينيٍّ أو جنسيٍّ تدافعون عنه أيها البراهمة أو المسلمون أو البوذيـــون أو غـــير أولئك من هنديين أو استراليين أو سَنغَالِيِّيْنَ أو غير ذلك حينما تقاتلون مـــع الإنكليز صفاً تتجرعونَ الموت وتصبغون بدمائكم البريئة ساحاتَ القتال؟ إنّ الذين غَصَبُوا أوطانكم وغلبوكم على أمركم فَدَنَّسُوا جنسيتكم وطـــاردوكم في دينكم وهكذا اعتدَوا على شرفكم الوطني والدينيِّ والجنسيِّ هم الانكليـــزُ الذين تقاتلون معهم ويضحون نفوسكم أمامَهُم ليزيدوكم خَسْفاً وإرهاقـــاً. فإذا كنتم رجالَ حربٍ وضَرْبٍ وفي عروقكم من دم البسالة والحماســـة مـــا يبعثكم على اقتحام غَمَرَاتِ الموت فأولى بكم ثم أَوْلى أن تُريقـــوا ذاك الـــدم الأرجواني في سبيل تحرير رِقَابِكُمْ من رِبْقَةِ استعباد الانكليز الذين يضحونكم تحت أقدام مطامعهم، لا أن تقاتلوا معهم تزيـــدون في قـــوتهم وســـلطانهم لتستَحكِم منهم في رقابكم حلقات الأَسْرِ والاســـتعباد. إنمـــا أدعـــوكم إلى واحدةٍ: أن تقوموا مَثْنَى أو فُرادى، وِحْدَاناً أو جماعات ثم تتفكـــروا: أعلـــى هَدْيٍ أنتم بعملكم هذا، أم أنتم في ضَلال مبينٍ؟ لَعَمْرِ الْحَقِّ إنَّها لغفلةٌ يأبَاها العقلُ وتَنْبُو عنها مظانُّ الحكمة وليسجلنَّها عليكم التاريخ بالقلم العـــريض ثم ليحاسبنكم عليها الأخلافُ بين ثنايا المستقبل حساباً شديداً.

هُبُّوا إنَّكم مخدوعُون، والخدعةُ شَرَكُ الألبابِ، والانكليزُ أساتذةُ هذا الفنِّ وعفاريتهُ، فكيف استطاعوا أن يسيطروا على نظام العواطف وهـي بنـاتُ الطبيعة مُنْبَثَقُهَا تجويف القلب وسويداء الفؤاد؟ إن الحرب معتركُ موتٍ رهيب تَرْتَعِدُ دُونَهُ الْفَرَائِصُ؛ فلولا حالٌ عصبي يتغلب على الشعور لَمَا استطاعت نفسٌ خوض هاتيك الغمرات. وإذا ما أردنا أن نقف على كَنَه تلك الحالة العصبية فلا نكاد نراها غير عواطف في النفس يثيرُها ثائر الحماسة غيرةً وحميةً على حقوق تَحْلُو دون ابتذال هيكل صونِها مرارةُ الموت، فليت شعري أيَّـةُ عاطفة تتحرك في نفوسكم، وعلى أيُّ حقوق لكم تأخذكم الغيرة والحمية، ومن أين يتغلبُ على شعورِكم الحال العصبيُّ عندما تأخذون أسلِحَتكم وتجيبون داعي الْمَنَايَا تقاتلون مع سادتكم الانكليز؟ تَاللهِ لا ناقةَ لكم فيها ولا جَمَلَ كما تعلمون. ولكن هو الوهمُ يَبْطُلُ أمامه المنطق، وهي المخادعات الانكليزية تطمس على البصائر والأبصار، فإلى متى هذا الوهم.. وحتى متى يلعبُ بكم أولئك المخادعون؟

أليس مبدأُ الفكر منتهى العمل؟ فليت شعري أيَّـة نِهاية تضعون أمام أعينكم لمثل عملكم هذا عندما تبدأون به فكراً؟ أم هناك عملٌ من دون فكر فلا مبتدأ ولا منتهى؟ ألا أُخبركُم بالنتيجة؟ إن أصابت منكم الحرب فَجَرْحُ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ، وإن أصبتُم منها فقرَّة عين للسادة الانكليز. وبالجملة فشرُّها لكم وخيرُها للذين يقودونكم إلى هاتيك المصارع صُمّاً وعُمياناً.

كَذَلِكَ رَبِحَ مِنْكُمُ الانْكلِيْزُ أَرْوَاحَكُمْ يَا قَوْمِ، وَهَكَذَا سَعِدَ قَوْمٌ بِشَقَاءِ آخَرِيْنَ.

كَيْفَ رَبِحُواْ مَجْدَكُمْ؟

إنَّ التاجَ البريطانيَّ صغيرٌ بنفسه كبيرٌ بغيره، صغيرٌ بأبنائه الإنكليز السكسونيين كبيرٌ بأُسَرَائِه من بقية الأمم والشعوب. إن عظمةَ التاج البريطاني قائمةٌ بصعيد آسيا لا بجزر أُوربا، وإنَّ مَجْدَهُ مستمدٌّ من عظمة الشرق لا من زخارف الغرب. يرشدكَ إلى ذلك أن قَلَمَ السياسة يعنون دولةَ الإنكليز بالقرالية[1] نسبة إلى انكلترا وبالإمبراطورية أضافةً إلى الهند، وليست الهندُ إلا آسيويةً شرقية. وأن (السُّؤْدَدَ فِي السَّوَادِ) وقد دلتكَ الأرقام على ما بين السَّوَادَين الأوربي والآسيوي من البَوْنِ الشاسع. ثم مع هذا ترى أبناء الانكليز يعدُّون دولتهم أوربية غربيةً، كُفْرَاناً للنعمة واستهتاراً بالشرق وأبنائه ثم عَتْرَسَةً[2] وتعجرفاً. وإن مصرَ القاهرة هي السبب الوحيد لاحتفاظ بريطانيا بالسيادة على الهند، وعدد مستعبديها في أفريقيا يزيد على أبنائها في أوربا، فشطرٌ من عظمة تاجها القائم بأفريقيا والأفريقيين كذلك. ولكنها ترى الشرق

(١) الْقَارِيَّةُ وَالْقَارَّةُ: الحاضرةُ الجامعةُ، ويقال أهل الْقَارِيَةِ: للحاضرة. والقريةُ التي هي الْمِصْرُ. لسان العرب: ج ١١ ص١٤٨. فيكون المطبوعُ خطأً، والأصل فيه (القاريَّة نسبة إلى انكلترا) وهو المناسبُ والله أعلم. ووجه آخر أرادَ به التحفُّزَ للهيمنة على السياسة العالمية، فيكون من القِرْلِيِّ: طائرٌ ذو حزمٍ، لا يرى إلا فَرِقاً على وجهه الماء مرفرفاً على جانبٍ يصيدُ السمكَ، صغير الجرم من طيورِ الماء سريعُ الغوص، يهوي بإحدى عينيه في الماء ويرفعُ الأخرى في الهواء حذراً، ومنه المثل (أَحْزَمُ مِنْ قِرْلِيٍّ — أو أحذرُ — إنْ رأى خيراً تدلَّى، وإن رأى شرّاً تولَّى). القاموس المحيط: (قرلى). ولسان العرب: ج ١١ ص١٣٠، والأول أنسب.

(٢) الْعَتْرَسَةُ: الأَخْذُ بِالشِّدَّةِ وَالْعُنْفِ وَبِالْجفَاءِ وَالْغِلْظَةِ. وَالْعَتْرِيْسُ: الْجَبَّارُ الْغَلِيْظُ. القاموس المحيط للفيروزآبادي.

وأبناءه وما حوى صعيد آسيا وأفريقيا من سَقَطِ الْمَتَاعِ.

أَجَلْ يَا قَوْمِ، يحقركم الانكليز ولولاكم لما أصابوا مَجْداً وتاهُوا فخـــراً. يستصغرونكم وأنتم أكبرُ لؤلؤة في التاج الذي به يفخـــرون. لا يريـــدون أن يعرفوا لكم وجوداً وبكم تَمَّ لهم الوجود، يسمونكم أمواتاً ومنكم يستمدون مادة الحياة. لا يعترفون لكم بشرفٍ ومجدٍ وبكم عرفوا أشرافاً أمجاداً. استولوا على أوطانكم وقضوا على استقلالكم وذهبوا ببَهَاءِ مُلْكِكُمْ ثم سلبُوا أموالكم وتاجروا بأرواحكم وأبطلُوا حقوقَكم وعبثوا كما شاءوا بأقـــداركم حـــتى مَسَخُوهَا مسخاً ثم لم يَرَواْ منكم غير الصبر والاستكانة والرضا والاستسلام، فهل بعدَ كل هذا تطمعونَ أن يعترفوا لكم بشرفٍ ومجدٍ؟ المجدُ للتاريخ، فأين عَنْعَنَاتكُمُ التاريخيةُ؟[1] لقد مَحَاهَا الإنكليزُ من صحيفة الوجود، الشـــرفُ أن يؤسِّسَ الآباءُ ويشيدَ الأبناءُ، فماذا شِدْتُمْ على تِلْكُـــمِ الأُسُـــسِ ؟ أم هـــل حفظتموها من يد الغصب ومعْوَلِ التخريب؟ لقد اغتصبَها الإنكليـــزُ غصـــباً وقوَّضوها تقويضاً ثم بَنَواْ من أنقاضها كلَّ قصرٍ مَشيْدٍ، إذا حشرت الأمم في صعيدٍ للتفاخر ثم دعيت كلُّ أمةٍ بكتابِ مجدها فأيَّ الصـــحائف تقـــرءون؟ ألِلأَوطان تذكرون؟ فقد غصبَها الانكليز. أم بالاستقلال تُبَاهُونَ؟ فقد قضَـــى عليه الإنكليز. أم بالملك تفخرون؟ فقد ذهب بـــه الإنكليـــز. أم بـــالأموال تُكَاثِرُونَ! فقد سَلَبَهَا الانكليز، حتى أنكم لأنفسكُم لا تملكون، فقد استرقَّها الانكليز استرقاقاً واستعبدوها استعباداً. فإذا دُعيَت الأممُ إلى التفاخر بَـــرَزْتُمْ وأنتم صُفْرَ الأيدي، وبَرَزَ الانكليز وهم بما صَفَرَتْ منه أيديكم يفتخرون.

كذلك ربحَ منكم الإنكليز مجدَكم وشرفَكم يَا قَوْمِ، وهكذا سَعِدَ قـــومٌ بشقاءِ آخرين.

---

(١) عَنَّ الشَّيْءُ يَعُنُّ وَيَعِنُّ: ظَهَرَ أَمَامَكَ، أَعَنَّ الْفَارِسُ: إِذَا مَدَّ عِنَانَ دَابَّته لِيُثْنِيَهُ عَنِ السَّيْرِ، وَسُمِّيَ عِنَانُ اللِّجَامِ عِنَاناً لاعْتِرَاضِ سَيْرَيْهِ عَلَى صَفْحَتَي عُنُقِ الدَّابَّة عَنْ يَمِيْنِه وَشِمَالِه.

كَيْفَ رَبِحُواْ حُقُوقَكُمْ؟

أليسَ الأوطانُ ولوازمُها والأموالُ وتوابعُها والأرواحُ ولواحقُها والْمَجــدُ وأصولهُ والشرفُ وفروعهُ كلٌّ أولئك حقوقاً منها شــرعيٌّ ومنــها وضــعيٌّ وبعضها ماديٌّ وبعضها أدبيٌّ؟ فإذا ما كان الانكليز قــد غصــبوا أوطــانكم وسلبُوا منكم استقلالكم ونَهَبُوا أموالكم وتاجروا بأرواحكم وأغَارُوا علــى مجدكم وشرفكم من طَارِفٍ وتَلِيْدٍ حتى لم يأبهوا بمقدساتكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً – وهذه هي مفاخر الحياة كلها – أفلا يكونون قد ربحوا مــنكم كل حقٍّ مادياً كان أو أدبياً؟

كَذَلِكَ رَبِحَ مِنْكُمُ الانْكلِيْزُ حُقُوقَكُمْ يَا قَوْمِ، وَهَكَذَا سَعِدَ قَــوْمٌ بِشَــقَاءِ آخَرِيْنَ.

نُبْذَةٌ فِي الأَخْلاَقِ الانْكلِيْزِيَّةِ

علمتَ أنْ ليسَ بين المتبوعِ والتابعِ تبادلُ منافع، وإنما هناك ربحٌ من غــير خُسْرٍ يتمتعُ بنعيمه أولاد السكسون وخُسْرٌ من غير ربحٍ يتجرَّع مرارتَهُ أبناء المستعمرات. هذه هي مروءةُ السَّادة الانكليز وخدمتهم للإنسانية مع أبنــاء المستعمرات من الْوِجْهَةِ السِّيَاسِيَّةِ، فكيفَ معاملاتُهم من الوجهةِ الأخلاقية يا تُرى؟

إنَّهم يعدُّون أولئك المساكين خَوَلاً[1] ويُسيئُونَ إلــيهم قَــولاً وعمــلاً،

(١) خَوَلُ الرَّجُلِ: حَشَمُهُ وَأَتْبَاعُهُ، وَيَقَعُ عَلَى الْعَبْدِ وَالأَمَةِ، وَالْمُــرَادُ خَــدَماً وَعَبِيْــداً ≺≺

غطرسةً[١] منهم وعَجْرَفَةً[٢] عَهِدَتْهُمَا عنهم الأمم وَوَسَمَهُمْ بهما التـــاريخ. ومن اطَّلَعَ على طِباعهم وأخلاقهم وعاداتِهم علم أن هناك شعباً لا يصبرُ على تعجرفه وغطرسته إلا من كُتِبَ عليه الشقاءُ في لوح الأزل.

هما طبقتان: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فأما العامَّة فكما وصفهم في (كَشْفِ الْمُخَبَّا عَنْ فُنُونِ أُوْرُبَّا) قالَ: (إن العامَّةَ في هذه البلاد ليس لهم حظٌّ من الكِيَاسَةِ كما عرفتَ مما مرَّ بك ولا تكادُ خلائقهم وعاداتُهم تُرضي أحداً من البشر ممـــن كان ذَا ذوقٍ سليمٍ وطبعٍ مستقيم، فَالأَوْبَاشِيَّةُ ظاهرةٌ علـــيهم في كلامهـــم وحركاتِهم وتخيُّرُهم للألوان وفي تصرُّفهم وغنائهم وضحكهم). ومـــن أراد تفاصيل ذلك فليرجع إلى الكتابِ المذكور يجد هناك من الوحشةِ[٣] والـــبلادَةِ

يَسْتَخْدِمُونَهُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَهُمْ.

(١) الْغطْرِسُ؛ وَالْغطْرِيْسُ: الظَّالِمُ الْمُتَكَبِّرُ، وَالْغَطْرَسَةُ: الإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ؛ وَالتَّطَـــاوُلُ عَلَى الأَقْرَانِ وَالتَّكَبُّرُ، وَغَطْرَسَهُ: أَغْضَبَهُ. القاموس المحيط.

(٢) تقدَّم أنَّ الْعَجْرَفَةَ: الْجَفْوَةُ فِي الْكَلاَمِ.

(٣) قال قيصرُ: إن أهل بريطانيا جيلٌ جَافٍ مُتَوَحِّشٌ أكثرَ ما يكون. وقال شيشرون: إن أَبْلَهَ الأسرى الذين جِيْءَ بهم إلى رومية هم الذين أخذوا من بريطانيا. ولهم مـــن الأوهامِ والخرافات في الفالِ والطِّيَرة ومن الحماقة والخطَلِ في تبصير البَخْتِ بالورق وغيره من الخزعبلات ما يُبكي ويُضحك ثم لا يكاد يصدِّقه العقلُ. فمنها أن مَـــن خرج من المنْزِل لمصلحةٍ يرومُها ورُمي من خلفه بنعلين بَالِيَتَيْنِ كان ذلك دليلاً على نجاحه! وهذا تستعملهُ خصوصاً عِلْيَةَ الناس ولا سيما عند الأعراسِ. ومنها إذا عَزَمَ الإنسانُ على سفر وأكلَ نصف بصلةٍ وترك الباقي كان دليلاً على عدم توفيقـــه؟! ومنها الاعتقادُ بظهور روحِ الميت عند قبره تتراءى لبعض المارِّين في هيئة بشرٍ بلباس أبيض ! ومنها أن امرأةَ جَنَّتْ من تَهويل عرَّافةٍ عليها فكانت تقولُ في حال جنونها مبصرة البخت الورق تكرِّرها مرات. وتزوجت أُخرى فأخبرتْها عرَّافةٌ بأن زوجَها الأول حيٌّ وهو عازمٌ على الرجوع فألقت نفسَها في النـــهر وانتحـــرت غَرقـــاً. والعجيبُ أن القومَ حتى عِلِيَّتُهم وذوي المراتب منهم والمناصـــبِ يتـــهافتون علـــى ≺≺

والعَجْرَفَةِ والغطرسة والشُّحِّ والحرصِ والخرافات والخزعبلات ما يأذن لــه أن يتمثل بقول الشاعر:

فَإِنَّ فِي الْبَشَرِ الرَّاقِي بِخِلْقَتِــهِ مَنْ قَدْ أَنِفْتُ بِهِ أَنِّي مِنَ الْبَشَــرِ

وأما الخاصةُ فَإِسْتٌ في الماء وأنفٌ في السماء. يرى أحدُهم نفسَه فــوق كلِّ شيء ولو كان غير شيء. وُلِدُوا وَوُلِدَ معهم الشرفُ مُقَمَّطاً بالألقاب ثم لا يلبثُ أن يكون غشاءً على أبصارهم فلا يكادون يرون سواهم شريفاً يرون أنفسهم حيث ذُكِرَ اسمهم فهناك الحقُّ وإن كان باطلاً، والمجدُ وإن كان خِسَّةً، والرفعةُ وإن كانت ضَعَةً، والعدلُ وإن كان ظلماً، يستهترون بكل أمة لأنَّهــا غيرُ إنكليزيةٍ، ويسخرون من كل قوم أن لم يكونوا سكسونيين، يُمُنُّونَ على الأمم إذا ما استعبدهم التاجُ البريطاني، يرون ذاك الاستعباد تحريراً وهاتيــك المذلَّةَ عِزّاً، غطرسةً منهم وتعجرفاً وتكبراً وتجبراً. لا بد أنك قد سمعتَ بِها تين الكلمتين (لُورد، جَنْتِيلْمَان) أنَّهما رأسُ البلاء للمســاكين ومنبــعُ الشــقاء للفقراء[1] حتى إذا دَخَلَتَا مجلسَ القضاء كانتا على الحقِّ قضاءً مبرماً.

الدجَّالات والدجَّالين. ومن توحُّشِهم أنَّهم يبيعون نساءهم بيعَ الحمير ويشــهدون على ذلك من غير خجلٍ ونكير، فمن ذلك – كما جاء في أخبارِ العالَم – أن رجلاً باعَ زوجته في حانةٍ بخمسة شلينات ونصف. وآخر يُدعى توماس داي باعَ زوجته في حانةٍ كذلك بنصف پــنت من الجبن تقاسموهُ هو وهي وعاشقها المشتري. وآخر اسمهُ توماس ميدلطون باعَ زوجتَهُ ماري لفليب روستنسن بشلنين وربع. وكثيراً ما يقوم السمُّ مقام هذا البيعِ فإن التخلص من الأزواج به أكثر منه بالطلاق والبيع. وما أخال فوق هاتين العادتين من وحشة. عن (كَشْفِ الْمُخَبَّا). (حبيب).

(١) وبين الفقير والغني عندهم فرق عظيمٌ حتى في الأمور الدينية فضلاً عن الدنيوية. قال في (كَشْفِ الْمُخَبَّا) أن الغنيَّ عند الانكليز شعار على الجدارة والاســتحقاق لكــلِّ شيء، فالغنيُّ عندهم يمكنه أن يرفعَ دعواه إلى مجلسِ المشورة ويطلِّقَ امرأته لعلَّة الزنا حقيقةً أو ادعاءً والفقيرُ لا يمكنه ذلك. (حبيب).

هذه الخاصَّة، وتلك العامة، ثم الحكومة ثالثةُ الأثَافي[1] لا تعــرفُ غــير صالحها ولا تسعى إلا من وراء مصالحها، تَعْبُدُ الهوى وتُؤَلِّهُ المنفعةَ ثم تُشْقي أقواماً لِتُسْعِدَ آخرين، وإنما الشقيُّ رابعُ هذه (الأَقَانِيْمِ الثَّلاثَةِ) ألا وهم أبنــاءُ المستعمرات يعدُّونَهم خَوَلاً ويُسيئون إليهم قولاً وعملاً.

نُبْذَةٌ فِي السِّيَاسَةِ الانْكلِيْزِيَّةِ

السِّيَاسَةُ أَشْبَهُ بِالْمَاءِ يَتَلَوَّنُ بِلَوْنِ الإنَاءِ، ولكنما إناؤُها المنفعةُ. تلك حقيقةٌ راهنةٌ ما عليها من غُبَارٍ. بَيْدَ أَنَّ للسياسةِ طُرُقاً ومناهج تُؤَوَّلُ بعد التمحــيص إلى أمرين: المانعُ، والمقتضي؛ وكلٌّ منهما على وجوهٍ.

فَالْمُقْتَضِي: هو الباعثُ على العملِ لِلسَّاسَةِ عند تبادلِ الآراء في مصــالح الأمة وتدبير شؤون الملك. ثم البواعثُ شتَّى ولكنها تنحصرُ في أمرين: دَفْــعُ الْمَغْرَمِ، وَجَلْبُ الْمَغْنَمِ. وكلٌّ منهما إما أن يكون مادِّيّاً أو أدبيّاً. فتندمجُ تحت هذه البواعث غاياتٌ كثيرة: كحفظ شرفِ الأمة وازدياد ثروة الدولة وَصَوْنِ كيانِ المملكة وتوسيع نطاق الملك وتعزيزِ شوكة السلطان وتمجيد عَنْعَنَــاتِ التاريخ والذَّبِّ عن حَوْزَةِ الْعَقَائِدِ وكيانِ المقدَّسات وغير ذلك من كــل مــا يعودُ على الدولة والأمة بما يعتقدان به الخير لهما مادياً كان أو أدبياً.

وأما الْمَانِعُ: فهو الَّذي يَقِفُ حَجَرَ عَثْرَةٍ فِي طَرِيْقِ السِّيَاسِيِّ يَحُولُ بينــهُ وبينَ المنفعةِ التي لا يَهُمُّهُ سواهَا شيء. وهو إما ماديٌّ وإما أدبيٌّ. فالماديٌّ حَرَجُ

(١) الأَثَافِي؛ وَإِنْ شِئْتَ خَفَّفْتَ، (وَثَفَّى) الْقِدْرَ تَثْفِيَةً: وَضَعَهَا عَلَى الأَثَافِي، وَالإِثْفِيَةُ مَا يُوضَعُ عَلَيْهِ الْقِدْرُ. وَفِي اللِّسَان قَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِمْ: رَمَاهُ اللهُ بِثَالِثَةِ الأَثَافِي: أَيْ رَمَاهُ بِالشَّرِّ كُلِّهِ فَجَعَلَهُ أُثْفِيَةً بَعْدَ أُثْفِيَةٍ حَتَّى إِذَا رُمِيَ بِالثَّالِثَةِ لَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا غَايَةً. لســان العرب: ج ٢ ص١١٠.

الْمَوْقِفِ من ضعف في الدولة أو قوَّة في مورد المنفعة يَمْنَعَانِ السِّيَاسِيَّ أن يَبْسُطَ هناك يداً. والأدبيُّ هو صوتُ الضمير يُهِيْبُ بالسياسيِّ على نَغَمَاتٍ شتَّى فيقفُ به دون المنفعةِ التي تطمحُ إليها أنظارهُ: فطوراً يهدِّده بجبروتِ اللهِ، وطوراً بجلالةِ الشرفِ، وآخر بعظمةِ الإنسانية، ثم تارةً بصولة (التَّارِيْخِ) وتارةً بداعيةِ المروءةِ، وأُخرى بنَزَاهة الْوُجْدَانِ.

أما الإنكليزُ فإنَّهم ينكرون كلَّ صوتٍ للضمير كأنَّهم أجسادٌ خُلقت من غير قلوبٍ، فلا يخافون الله[1] ولا يَأْبَهُون بالشرفِ، وَلَيْسَ للإنسانية عندهم ذِمَّةٌ، ثم إنَّهم لا يخشون وَصْمَةَ التاريخ، ولا يفقهون للمروءة معنىً، ولا يعرفون ما الوجدان وكيف يكون نزيهاً. وإنما لهم منهجٌ في السياسة واحدٌ لا يمنعهم عنه أيُّ مانعٍ كان، ألا وهو (الْمَنْفَعَةُ..!) فيستحلُّون في سبيلها كلَّ مُحَرَّمٍ، ويستبيحون كلَّ حِمىً ممنوعٍ، وينتهكون كلَّ حُرْمَةٍ، ويركبونَ كلَّ مَرْكَبٍ مهما كان فظيعاً. يَدْمَغُونَ في سبيلها الحقَّ ولو كان من فوقه يدُ الله، ويعزِّزون الباطل ولو مشى على قدم الشيطان. يستحلُّون في سبيلها الكذبَ ولو على اللهِ وأنبيائه، والغدرَ ولو من الأبِ بأبنائه، والمكرَ ولو من أخٍ مع أخيه، والغشَّ ولو من واعظٍ لمستمعيه وناصحٍ لمؤتَمنيه، والخدعةَ والدَّسَّ ولو من ولدٍ مع أُمِّه. حتى عَرَفَهُمْ الخاصُّ والعامُّ بهذه الأوصاف الزَّكِيَّةِ!! فكانت لهم شِعاراً ودِثَاراً.

أَجَلْ (الْمَنْفَعَةُ.!) لا يعرفون غيرها ولو هلكَ في سبيلها العالم بِأَسْرِهِ وأطفأت جذوة الوجود وانقطعَ نسلُ آدمَ وحواء ولم يبق غيرَ أمة الإنكليز وأبناء السكسون. أجل (الْمَنْفَعَةُ.!) هي غايةُ الغايات عند الإنكليز، إنَّها تبرِّرُ

(١) وإذا عبدوهُ فإنَّما يعبدونه في سبيلِ المنفعة رياءً وتدليساً كما أشارَ في (كشف المخبا) إلى شيءٍ من تفصيل ذلك. (حبيب).

عندهم كلَّ واسطةٍ، ثم ما عليهم أن تكون شريفةً أو غيرَ شريفةٍ، مشروعةً أو غيرَ مشروعةٍ.

تلكَ الأخلاقُ التي عَلِمْتَ وهذه السياسةُ التي عَرَفْتَ هما اللتـــان كانتـــا السببَ في شقاء أبناء المستعمرات البريطانية وهما اللتان جعلتَا الإنكليز بـــين الأمم أشبهَ بالوحوشِ الضارية، يَجْنُونَ على البشر عامَّة وعلىالمسلمين خاصَّة، ومن بُرْكَانِ مثل تلك السِّياسةِ الخبيثةِ تَطَايَرَ شَرَرُ الْحَرْبِ الْحَاضِرَةِ.

يَعْلَمُونَ فَيَعْمَلُونَ، وَكَذَلِكَ عَمْداً يَجْنُونَ

مهما علمتَ من إنسانٍ فإن الذي يعلمهُ هو من نفسه أكثرُ، فكلُّ ما مرَّ بك من الحقايق عن الإنكليز أنه غيرُ مجهول لديهم بل يعلمونه -كما نعلمهُ أَنَا وَأَنْتَ- مع زيادةٍ:

يعلمون أنَّ سيطرةَ عددٍ يَسِيْرٍ علىعدد كَثِيْرٍ وليس بينهما جامعٌ ثم تَحَكُّمُ أمة واحدة في أُمَمٍ عديدة من دون أن يكون بينهما تبادلٌ في المنافعِ فَلْتَةٌ مـــن فَلَتَاتِ الطبيعة وغَلْطَةٌ من غلطاتها لا بد أن يصحِّحها قلمُ القدرة ويرجع بها إلى نظامها الخاص. يعلمون أن الانفجارَ نتيجةُ التَّضْيِيْقِ ومَنْ أَحْرَجَ فَقَدْ آذَنَ بِالْمَخْرَجِ وأن حياةَ الضِّدِّ بِالضِّدِّ وأن للظلمِ مَصْرَعاً وللبغي مَوْبِقاً فليس مـــن الرأي أن يَأْمَنُوا مَغَبَّةً ما هم فاعلون بها تِيْكَ الأممِ يستبدُّون فيهـــا اســـتبداداً ويستعبدونَها استعباداً. يعلمونَ أن تنازع البقاء من سننِ الكون وأن التنـــافسَ من غرائزِ البشر وأن أكبرَ مُجْتَلَى من مظاهر الحياة لهاتين السُنَّتين هي السياسةُ وأن على وجه البسيطةِ دُوَلاً ذاتَ حولٍ وطَوْل وأقواماً أُولي بأس شديدٍ فـــلا بد أن تَنْزِع بِهِم الطبيعة إلى منازعة الإنكليز هذا التبسط الأوْفَى في امـــتلاك الأقطار واسترقاق الشعوب والتفوُّق السياسيِّ حيث يحكمون رُبـــع ســـكان

الأرض ويتحكَّمون في عالَم السياسة يديرون دفَّتها كما يشاؤون ويشاء لهم الهوى. يعلمون أن الشرقَ إذا استيقظ من رقاده فلا بُدَّ أن يَثْأَرَ لنفسه فلا يدعهم على أرائك نعيمهم متكئين وأن دعامته المسلمون فإذا نَهضوا من كَبوَتهم فلا بد أن يَجْرُوا شوطاً يحرِّرون به رقاباً ويسترقُّون رقاباً ثم يُعِزُّونَ أقواماً ويذلُّون آخرين؛ يعلمون أن للمسلمين عروةً وثقى لا انفصام لها وهي الخلافة العظمى وأنَّها قائمةٌ بالدولة العثمانية؛ ولا سبيل إلى القضاء على المسلمين تمام القضاء إلاّ بانقراض هذه الدولة كيما يصبح أبناءُ القرآنِ من غير رَاعٍ تحيطُ بِهِمُ الذِّئَابُ من كلٍّ جانبٍ[1].

(١) وبعدَ أن كان للانكليز بمعاونة أهل المطامع الشخصية من الأنانيِّين الذين أردوا العلوَّ في الأرض بالفساد؛ فهدموا أركانَ دولةِ المسلمين ونقضوا بنيانَ الخلافة وعزَلُوا الخليفةَ من غير إرادة الأمة، فإن المسلمين ذاقوا الضَّيْمَ وحلَّت بِهم الْمِحَنُ. واليومَ بعد أكثرَ من سبعة عقود من الزمنِ ظهرت للرائي تباشيرُ النهضة تلوح في الأُفق بفجرِ الخلافة من جديد، فإنَّ نقضَ أركان الخلافة توهَّم به الغافلون والناكثون أنه إزالةٌ له من الحياة، وخَدعُوا أنفسهم، فالبناءُ قابل للإعادة واستئناف تشييده من جديد؛ لأن أصوله قائمةٌ، فأصوله حقُّ الأمة في السلطان، والأمة وإن تَشَرْذَمَ بها الحالُ، فطاقتها كامنةٌ بصحوة شُجاعٍ؛ ونباهة ذكيٍّ؛ وهمَّة غيور؛ وعزمٍ مخلص؛ وحدِّث ولا حرجَ فإن المسلمَ مهما بلغ به التراجعُ عن الاتباع، فإنه إذا ما تَنَبَّه كان بطلاً مغْواراً وعزماً لا يلينُ إلا بإحدى الْحُسْنَيَيْنِ: شهادةٌ أو إظهارُ حقٍّ.

وَلْيَعْلَمَ الذين غدَرُوا أو خَانُوا ومَن بقي من آثارهم: أنَّ الأمرَ للخلافة قائمٌ بالأمة؛ فإن لم يتفهَّم الإنكليز والأمريكان ودولُ أوربا أن تكونَ للمسلمين دولة رضاً من أنفسهم بقصدِ التعايش السلميِّ على هذه البسيطة من الأرض، فإنَّهم سيأتون رُغْماً يبحثون عمن يُمثِّلُ المسلمين حقّاً ليتفاهموا معه ولو بعد حين. بل سيدعون المسلمين أن يُقيمُوا لأنفسهم دولةً، وللتاريخ ذكرى؛ فإن المشركينَ شَرَطُوا وعزموا أن مَن يأتي رسولَ الله مسلماً منهم؛ يرجعهُ إليهم، فكان أبو بصير، وما حصلَ معروفٌ، فلما ذاقوا وَبَالَ ما قدَّرُوا، جاءُوا إلى رسولِ الله ﷺ يَرجُونَهُ أن ≺≺

أَجَلْ: كلٌّ ذلك يعلمهُ الإنكليزُ وأنَّ عِلْمَهُمْ هذا كان أكبرَ باعثٍ لَهم على ما اعتادوه في مناهج السياسةِ من الْمُراوَغَاتِ والْمُخَاتَلاتِ والدَّسَائِسِ والمخادعات، يبيِّتون الشر للأمم ويسعون من وراء ارتباك السياسة بين الدول يبثُّون الشرورَ هنا وهناك، فكلما أُطفئت فتنةٌ أوقدوا ناراً أخرى، وهكذا كانوا رأس البلاء ومنبع الشقاء للبشر يتربَّصون الدوائر بعباد الله لا سيما الشرق وأبنائه المسلمين ودولة خلافتهم الوحيدة دولة القُرآنِ والهلال. يريدون بذلك إضعافَ قوى الدول والأمم إذا ما اشتبك بعضهم ببعض من وجهة واشتغالهم بأنفسهم من وجهة أخرى ليَصفُوا الجوُّ لبريطانيا وحدها: فلا منازعَ

يجعلَ أبا بصير في كَنَفه ويدخله في رعايته.

وَلْيَعْلَمْ أهلُ الحرَب الصليبيَّة: أن من العبث محاولةَ الأمم الرأسمالية بعقيدتها المزدوجة الخليطة بين المفاهيم الحاقدة والتي تكوَّنت في دوافع الأعماق في نفوسهم وعقيدة المنافع الرأسمالية التي تنظِّمُ السلوكَ في أعمالهم؛ أن الإسلامَ دينُ المسلمين، والخلافةُ شعارهُ وحقيقته؛ وأنَّهم إن يَمنعوا دولةَ الإسلام ونظام الخلافة أمرٌ مستحيل؛ فإن لم يتفهَّموا أن لا بدَّ للمسلمين من دولة، ويرضوا من أنفسهم بذلك؛ فإنَّهم سيرضون به كَرهاً ورُغماً. بل لا تستقيم لهم حياةٌ إلا بوجود الخلافة، وليعلموا أنه ربَّما قادَهم غباؤُهم السياسي بدوافع الحقد والكراهية؛ ومشاعر الطَّمع؛ أي غباؤهم السياسي نتيجةَ التعصب الديني والطائفي أعمَى أبصارهم وأدخلَهم دوامةَ التِّيْه الدمويِّ، فليعلموا أن الدائرةَ بدأت تدورُ عليهم، وأن دائرةَ الحياة الآن ترجعُ إلى فلَكها الطبيعيِّ، وأن صناعةَ التاريخ أخذت تسجِّلُ لأهل الإسلام التفوُّقَ المقنعَ للعقلِ؛ المثبتَ للحقِّ؛ الظاهرَ للعدل عند أهل الإنصاف، وأن أهلَ الإسلام سيرجعون إلى مراكز القيادة في العالَم من جديد لإنقاذ أنفسهم ونفعِ البشرية.

واعلم أيها النَّابهُ: أنك ستجدُ ولو بعد حينٍ، أن العقلاءَ في أمم الصَّليب سيفزعون راجين المسلمين أن يقيموا دولتَهم ويشيدوا نظام الخلافة من جديد، وَبصَغَارٍ إن شاء الله، بقصد أن يتفاهموا على العيشِ بسلام، لا بطمعٍ وعُنجهيَّة. فإن لم يشاءوا عقلاً وتعقُّلاً من أنفسهم، سيشاءون رُغماً؛ وإن غداً لِنَاظِرِه لقريبٌ، وسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، وبَشِّرِ الصابرينَ.

لها ولا منافسَ ولا ثائر ولا منتقمَ، وإنما تلعبُ بالعبـــاد، والعبـــادُ بأنفســـهم مشغولون.

ومن بُرْكَانِ مثل هذه السياسة الإنكليزية نفسها تطاير شررُ هذه الحرب العامَّةِ التي غيَّرت خريطةَ الهيئة الاجتماعية وقلبت الكون رأساً علـــى عقـــب وكانت جنايةً كبرى على البشر كافةً حتى على الطفل في المهـــد والميـــت في اللَّحْدِ وسنعلمك بالجانِي عما قريبٍ.

مَنْ هُوَ الْجَانِي فِي الْحَرْبِ الْعَامَّةِ؟ صَفَّقَ الْحُوتُ وَرَقَصَ الدُّبُّ

يُضْرَبُ المثلُ بالدُّبِّ في البَلاَدَةِ وفَـــرْطِ التَّحَمُّـــلِ للضـــربِ الوجيـــعِ، وكذلك جرتِ العادةُ على اتخاذه أُلعوبةً أضـــحوكةً، يرتـــزق مـــن ورائـــه المتشردون الذين اعتادوا الكسب من غير عمل أيـــديهم، يعيشـــون بالحيلـــة والتدجيل والمهاترات والألاعيب. فترى أحدهم يعمد إلى دبٍّ فيضعُ في عنقه سلسلة من حديد ويقبضُ على الزمام ثم يضربُ بالدفِّ ويصـــفِّقُ بـــالكفِّ وينشدُ الأناشيد ويرتبُ الأغاني وهكذا يطوفُ بالدبِّ في الشوارع ويقـــف به على الأبواب يرقِّصه ويُلعِّبه ثم يوجعهُ ضرباً ويشـــبعه صـــفعاً ويضـــحكُ عليه المتفرِّجون وهم من حوله زرافات زرافات. ثم عند تصـــفية الحســـاب ترى نصيب المتشرِّد أن قضى بالدبِّ وطراً، ونصيبُ الدبِّ ما عانـــاهُ مـــن الصفعِ الأليمِ والضربِ الوجيعِ فضلاً عما لحقه من الحقارة في اتخاذه أُلعوبـــةً أُضحوكةً.

كذلك مثل الإنكليزِ والروسِ في إيقاد نار الحرب العامَّة: صَفَّقَ الْحُـــوتُ وَرَقَصَ الدُّبُّ. ولكنها الصفقة الخاسرة ورقصةُ الديك مذبوحاً من الألَم.

في غُرف بطرسبرج السياسية دُبِّرَ قَتْلُ الارْشِيْدُوقُ[1] ولكن في غرف لندن تأصَّلت عروق الفتنة ونَمَتِ الفروعُ. علمتَ غير مرة أن من صوالح الإنكليز أن تَظَلَّ الأممُ عنهم ساهيةً والدولُ لاهيةً، فانتهزوها فرصة وزادوا الدبَّ تصفيقاً ليزداد رقصاً. ثم ريثما استعرت النارُ وحمي الوطيس وكان الذي يريدون عمدوا إلى هذه الجناية فشدَّدوا كُفرَها وضحكوا على الدبِّ والطاووس - أعني الافرنسيس والروس- حتى عاهدوهم أن لا يعقدَ أحدهم صُلحاً دون رضاء صاحبه. وأن إنكلترا لن ترضى حتى تضمحلَّ القوى من كلتا الفئتين؛ سواءٌ عندها أعداؤها وحلفاؤها ليتمَّ لها الدست فيصفو لها الجوُّ وتأمَنَ طوارقَ الليالي، وهذا الذي هي تريدُ كما سبق بيانه.

ثم هنالك للإنكليز غاية أخصُّ وهي عبارةٌ عن أمرين: أحدهما: إنْهاكُ قوى الألمان وتمزيقُ شمل ألمانيا حسداً لهذه الدولة على فرط رُقِيِّهَا وتقدمها السريع، ثم خشيةً منها في مستقبل الأيام لتفوِّقها على الإنكليز برّاً بمراتب من غير اشتباه ولمسابقتها لهم بحراً كما صدقت طَيْرَتُهُم في هذه الحرب إذ خاضوا الغمار وخسروا لقبهم بـ (سَادَةِ الْبِحَارِ).

وثانيهما: انتهاز الفرصة من هذه الحرب الطاحنة لتمام القضاء على الإسلام والمسلمين. وذلك بحلِّ (الْمَسْأَلَةِ الشَّرْقِيَّةِ) التي طالما أقامت الغربَ

(١) فرانز فرديناند: وليُّ عهد امبراطورية آل هابسبورغ، يأتي ترتيبه الثاني لارتقاء عرش الامبراطورية، فيكون امبراطور النمسا وملك هنكاريا، هذا سنة (١٩٠٠). تعرض لمحاولة اغتيال في الثامن والعشرين من حزيران سنة (١٩١٤) في مقاطعة البوسنة التي كانت خاضعة للدولة العثمانية حينها، ثم خرج من المدينة إلى سراجيفو، ليلقى مصرعه في نفس اليوم بطلقة واحدة من أحد التلامذة الصرب المتشددين. ينظر: عمر الديراوي: الحرب العالمية الأولى، عرض مصور، طبعة ١٩٦٤، دار العلم للملايين: ص١١-١٦.

وأقعدته و لم تزل وهي أعقدُ من ذنب الضَّبِّ، وليست هي في الحقيقة إلاّ ما يُمنِّي به أنفسهم الإنكليز وحلفاؤهم قديماً وحديثاً من تقسيم المملكة العثمانية ومحو الخلافة الإسلامية بانقراض هذه الدولة الوحيدة التي لم يبق في عالَم السياسة ملجأٌ للمسلمين سواها، كيما تستحكم للإنكليز حلقات الاستعباد في عنق الشرق ورقاب أبنائه البائسين لا سيما المسلمين.

تلك أمانيُّ الإنكليز التي بِها يَحْلُمُونَ وتلك أغانيهم التي بِها يَتَرَنَّمُونَ. وفي سبيل هذه الأماني والأغاني أرادوا أن يجنوا في هذه الحرب على المسلمين خاصة كما أنَّهم جَنَوا فيها على البشر عامة فكانوا على الإنسانية حملاً ثقيلاً وشراً وبيلاً.. ولكن خابوا وخابت آمالُهم أين هم من تمام ما يريدون؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(١).

الأَسْفَارُ والإِسْفَارُ(٢) مِنَ الشَّاهِدِيْنَ أَنَّ الإِنْكِلِيْزَ أَكْبَرَ الْجُنَاةِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ

رأيتُ القرآنَ – وهو كتابُ الله الْمُنَزَّلُ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ– يُكْثِرُ من أخبار الأمم الماضية ويحثُّ على الاعتبار بالقرون الخالية، فولعت بالتاريخ، ثم رأيته يأمرُ بالسير في الأرض والنظرِ إلى آثار رحمته وكيف كانت عاقبةُ الذين ظلموا من قبلنا وكانوا أشدَّ منَّا قوةً وأكثرَ آثاراً في الأرض إذ عمروها أكثر مما عمرناها ثم مَضَوا وما كانوا فيها خالدين(٣)، فألفتُ الأسفارَ:

---

(١) الشعراء / ٢٢٧.

(٢) الأسفار: الأولى: جمع سِفْر بمعنى الكتاب، والثانية: جمع سَفَر ومعناه معروف. (حبيب).

(٣) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ≺≺

كذلك وَلِعْتُ بِمَرَايَا العِبَرِ من طريقَيْ السمعِ والبصرِ، أَجْتَلِيْهَا من بين ثنايا الأسفارِ وأتنقَّلُ من أجلها على مَطَايَا الأسفار. وقد جعلتُ نُصْبَ عيني غايةً واحدةً إليها أجري وعليها يحومُ طائر فكري، وهي الهدفُ الذي لا أُفَوِّقُ سهماً إلاّ نحوه مهما تكسرت النِّصَالُ على النِّصَالِ، ألا وهي معرفةُ حال المسلمين من قديمٍ وحديثٍ لعلِّي أعرفُ الداءَ فأصفُ الدواءَ. ولقد سَبَرْتُ لهم غَوْراً واستطلعت خَبَأً، فللَّهِ ما كانوا عليه.. ثم إليه المشتكى مما صارُوا إليه..!

مَاذَا رَأَيْتُ فِي الأَسْفَارِ؟

اقتعدتُ غَارِبَ السفرِ قبل ستة أعوام فمكثتُ سنةً وبضعة أشهر ثم عدت إلى مسقط رأسي. و لم يقدَّرُ لي التجوال في غير المملكة العثمانية. ولكن وفِّقت بمنِّ الله إلى ما كان بمثابة تشخيص الطبيب للداء. ثم سألت الله التوفيق لسفرٍ آخر تكون به الهداية إلى الناجع من الدواء، وقد كان ذلك بحمد الله[1].

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم / ٩].

(١) إن الدواء الناجع –على ما أعتقد– هو الإتحادُ الإسلاميُّ. فكتبت (خُطْبَةُ نَادي الشَّرْقِ) في ذلك، أخاطب بها الأمم والأقطار الإسلامية أمةً أمةً وقطراً قطراً، وطبعتُ منها (٤٠٠٠) نسخة ثم أخذتُ منها عدداً غير يسير وامتطيتُ غاربَ السَّفر في جمادى الأخرى ١٣٣٢هـ من (الْمَوْصِلِ) مسقط رأسي ومهبَّ أنفاسي لأطوفَ الأقطار الإسلامية وأشفعَ القول بالعمل، فبينما أنا في بيروت إذ قُتِلَ الارشيدوقُ وبدأت نار الفتنة تَسْتَعِرُ فتربصتُ لأرى ماذا يكون ثم تكهَّنتُ بالذي كان فإذا دولةُ الخلافة انتهزت الفرصةَ وخاضت غمراتِ الحرب وأعلنت الجهادَ المقدَّس ونادت بالاتحاد الإسلامي جهاراً فعثرت على ما كنتُ ألتمس من الدواء وظفرت بضالَّتي المنشودة من غير عناءٍ. (حبيب).

لستُ الآن في صَدَدِ البحث عن كلتا رحلتيَّ وما وَعَتْهُ فيهما أُذني أو وقعت عليه عيني فإنه خروجٌ عن الصدد ثم شرحه يطول. ولكن أريد أن أذكر شيئاً من ذلك مما هو بمثابة الروح من الغاية التي اشرت إلى أنَّها هدفي الوحيد. وفي الإيجاز بُلْغَةً، ورُبَّ إجمالٍ خيرٌ من تفصيلٍ، ثم في الإشارة كفاية للبيب، فأقولُ:

رأيتُ المسلمَ مظلوماً بين ظالِمَيْن: نفسهِ وأعدائهِ، ثم في مقدمة كليهما **الإنْكلِيْزُ**.

فأمَّا **ظُلْمُهُ لِنَفْسِه** فمن وجوه كثيرة ترجع بعد التدقيق إلى أمر واحد: **هُوَ النَّقْصُ فِي التَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّة**. فلو تَأَدَّبَ المسلمُ بالآداب التي سنَّها لهُ دينُهُ الحنيفُ لما هُضِمَ له حقٌّ ولا ظلمت له حقيقةٌ.

وفي مقدمة هاتيك الآداب توحيدُ التربيةِ بكلِّ ضُرُوبِهَا مع استكمالِ الأسباب لذلك. فإنه أسُّ الأساس لما يأمره به دينه من التعاون على البرّ والتقوى حتى يصبح وبقية إخوانه المؤمنين أشبه بالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً. وهكذا يُتَّخَذُ الاتحادُ دِثَاراً كما اتخذَ التوحيدُ شعاراً. فإنه لا قوة من غير اتحاد. ولا حياةَ من غيرِ قوةٍ. إن القوةَ هي الأكسيرُ الوحيد. ولا حقَّ للضعيف في الحياة.

في استطاعتي أن أقولَ: أنَّ المسلمَ يعوزهُ كثير من ضروب التربية، فتعوزه التربية العلمية، والتربية الاجتماعية، والتربية الاقتصادية، ثم التربية الوطنية، والتربية الْمِلِّيَّةُ، والتربية الأخلاقيةُ. ومن ورائهن التربية الأساسية التي لا تقوم صروحها إلاّ على هاتيك الدعائم. ثم كل هذه الضروب من التربية مندمجة تحت التربية الدينية وكل الصيد في جَوْفِ الْفَرَى[1]. ذلك بأنَّ دينَ الإسلام

---

(١) الْفَرَى: هَكَذَا فِي الأَصْلِ الْمَطْبُوعِ، الفَرَأُ؛ مَهْمُوزٌ مَقْصُورٌ: حمَارُ الْوَحْشِ، وَقِيْلَ: الْفَتِيُّ مِنْهَا. وَفِي الْمَثَلِ (كُلُّ صَيْدٍ فِي جَوْفِ الْفَرَا) بِغَيْرِ هَمْزٍ؛ لأَنَّهُ مَثَلٌ وَالأَمْثَالُ ≺≺

علميٌّ اجتماعيٌّ اقتصاديٌّ وطنيٌّ مِلِّيٌّ[١] أخلاقيٌّ، وَهُوَ وَالسِّيَاسَةَ يَمْشِيَانِ جَنْباً إِلَى جَنْبٍ[٢] فما دام المسلم مُقَصِّراً في استكمال وسائل التربية الدينية على الوجه الذي أشرنا إليه مما يندمجُ تحته كلُّ ضُرُوبِ التربيةِ فإنه ظالمٌ لنفسه.

وأما **أَعْدَاؤُهُ** فدولُ الاستعمار -إنكلترا، روسيا، فرنسا، إيطاليا- ثم أكبرُها عداوةً وأكثرُها ضرراً الإنكليزُ[٣]...أَجَلْ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[٤]، وليس فيهنَّ من تَأْلُو جهداً حيث تَصِلُ يداها، بَيْدَ أن هناك فرقاً حاصلاً من وِجْهَةِ التفاوتِ بينهنَّ في الأطوار والقابليات:

فأما **رُوسْيَا**: فدبٌّ بليدٌ عرفناه وعرَّفَنا نفسه من قديم وحديث أنه عدوٌّ لدودٌ، يحكم بيننا وبينه السيفُ، والحربُ سِجَالٌ.

مهما اشتدت وطأةُ الظلم والعدوان من الحكومة الروسية على المسلمين -حتى أنَّها لتطاردهم في شؤونهم الدينية فضلاً عن الدنيوية حتى بلغَ بها ذلك إلى أمورٍ تافهة، فتراها تضعُ للمسلم في دفاترها اسماً مسيحياً غير الذي سماه به أبواه من الأسماء الإسلامية، وكذلك تعتدي على مقدَّساتِهم حتى جعلت

مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْوَقْفِ. أَيْ كُلُّهُ دُونَهُ. وَقَدْ يُهْمَزُ؛ فَفِي الْحَدِيْث: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَجَبَهُ ثُمَّ أَذِنَ لَهُ، فَقَالَ: مَا كِدْتَ تَأْذَنُ حَتَّى لحِجَارَةِ الْجُبْهُمَتَيْنِ؛ فَقَالَ: [يَا أَبَا سُفْيَانَ ! أَنْتَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: كُلُّ صَيْدٍ فِي جَوْفِ الْفَرَأ]. مَقْصُورٌ، وَيُقَالُ: فِي جَوْفِ الْفَرَأ؛ مَمْدُودٌ. وَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ تَأَلُّفَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ. لسان العرب: ج ١٠ ص٢٠٦. ترتيب القاموس المحيط: ج ٣ ص٤٦٠.

(١) الْمِلَّةُ: الشَّرِيْعَةُ وَالدِّيْنُ.

(٢) كما أوضحتُ ذلك في (حَبْلِ الاعْتِصَامِ) و (خُطْبَةِ نَادِي الشَّرْقِ) فَارْجِعْ إليهما إن شئتَ. وليس للمسلم في يومه هذا عن مثلهما مندوحةٌ. (حبيب).

(٣) وأحفادُهم اليومَ من أبناء السكسون ومهاجري البلادِ الأمريكان حيث أظهروا العداوةَ الصريحة للإسلامِ والمسلمين.

(٤) الأعراف / ٣٨.

مساجدَهم ومدارسَهم تحت رحمةِ رجال الشرطة والدَّرَك يعبثون بِها ما شاؤوا وشاء لهم الهوى، وحتى استطالت على قُرآنِهم واجترأت على كتاب الله العزيز فغيَّرت فيه تغييراً وحرَّفت تحريفاً- فإنما تصنعُ كل ذلك بصفتها خَصْماً لــدّاً وعدوّاً قديماً قد عرفناهُ وعرَّفنا نفسه.

وأمَّا **فَرَنْسَا**: فريشةٌ بمَهَبِّ الريح، يسوقُها الطــيشُ ويقودهـــا الغـــرورُ. ولَتَنْحَرَنَّ نفسَها بِهاتين الْمِدْيَتَيْنِ قبلَ أن تُجْهِزَ بِهما على المسلمين.

إنَّها ابتلعت (تونس) وهضمت لقمةَ (الجزائر) وازدردت (مراكش) ولكن ما أخالُ أن تلك المعدةَ لا تؤثرُ على أنسجتها العصبية عظامُ هذه الحيتـــان في مستقبلِ الأجيال. إن الطيشَ الافرنسي يحولُ بين فرنسا وبين المسلمين هنالك أن تخدِّر أعصابَهم بمورفين الدَّهاء: إن قوانين الاستعمار الافرنسي كفرٌ بواحٌ وظلمٌ ظاهرٌ وجَوْرٌ ينادي على نفسه: أعمالُ طائش ليس عليها طــلاءٌ فــلا يخشى على المسلمين من سبات عميق ينقلبُ موتاً بعده نشورٌ.

لتحرِّجُ فرنسا على أبناءِ القرآن أن يقرؤوا كلام الله كيمـــا تُقَمِّصَـــهُمُ اللادينية، وعلى أبناء الضاد أن يحتفظوا بالعربية كيما تُجَنِّسَـــهُمْ باللاتينيـــة، ولتضيق الخناق على أولئك المظلومين تطاردهم في دينهم وجنسيتهم سعياً من وراء سياسة التَّفَرْنُسِ بكلِّ قواها، ثم لتَزِدْ في ضــــرائبهم الفادحـــة ولتشـــدِّد عليهم الوطأة في قانونَي الأراضي والاستملاك؛ ولتجعل حقـــوقهم ثانويـــةً ودماءهم شبيهة بالهدر إزاء علوج الافرنسيس في محاكم الحقوق والجزاء على كراسي العدل الافرنسي!! وأمام هيكل المساومات الافرنسية!! لتثابر فرنســـا على هاتيك الفظائع وأضرابِها إزاء المسلمين. إنَّها لن تضـــرهم في مســـتقبل حياتهم شيئاً، إنَّها سياسةُ طائشٍ وسهمُ مغرورٍ يرتدُّ إلى نَحْرِهِ يوماً ما فَيُرْدِيْهِ قتيلاً.

وأمَّا **إِيْطَالْيَـا**: فلولا أنِّي أَرْبَأُ بقلمي أن يخطَّ البذيء من القول لَوَسَمْتُهَا كما يَسِمُهَا حَمَلَةُ الأقلام[1]، ولكن أقول: إنَّها أشبهَ بالحمارِ الشارد لا لصاحبه وفَّى ولا لظهره من العناء أراحَ.

يقال: تَحَكَّكَت[2] العقربُ بالأفعَى واستنَّت الفِصَالُ حتى القَرْعَى[3]. ويقال: لَوْ ذَاتَ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي. فيا خيبةَ المسلمينَ حتى دولة الطليان تطمعُ لديهم بالاستعمار. أغارت على (طَرَابُلُسَ الْغَرْبِ) واكتسحت بلاداً قديمةً للمسلمين افتتحوها منذ ثلاثة عشر قرناً، وليس فيها علاقةٌ ما للطليان لا دينيةً ولا جنسية، بل ليس هناك من رائحة يَرْعَفُ بها أنفُ المسيحية أو اللاتينية. وما كان من ذَنْبُ لأبناء طرابلس سوى أنَّهم مسلمون. فأغارت على أوطانِهم و لم تَأْلُ جهداً في ارتكاب ما وصلت إليه يدها من كل أمر فظيع. ولولا أن أبطالاً -مع قلَّة عَددهم وعُددهم- لم يَدَعوها تمتلك أوطانَهم حتى صَبَغُوا رمالَها الذهبيةَ بدماء عُلُوجِها الْجُبَناءِ لَلَجَّتْ في طغيانِها وركبت من الفضائح كل مركب ثم مثَّلَتْ بالمسلمين تمثيلاً. في استطاعة المؤرخ أن يقولَ عن الحرب الطرابلسية إنَّها كانت للطليان عَاراً وللمسلمين هناك فخاراً، فقد كبَّدوا هذه الدولة الأوربية من الخسائر ما لو علمت به من قبلُ لَمَا اقتحمت هذه العقبةَ: فما زالت منذ ستِّ سنوات تحارب قوماً عُزَّلاً بإسطولها الضخم وجيشها الجرار وهي معدودةٌ من الدول العظمى حتى خسرت عشرات الألوف من

(١) إذ يسمُّونَها (مومسة الغرب) تشبيهاً لها بأرذَلِ الخلق؛ لِضِعَتِهَا ورداءة أفعالها وقلَّة وفائها وعدم ثباتها على العهدِ كما سجَّلت ذلك على نفسها بالفعلة التي فعلَتْها مع النمسا والألمان: إذ نكثت معهم العهدَ ثم جاءت بأشنع من ذلك فوقفت في صفِّ أعدائهم بينما هي حليفتُهم منذ زمان مما لا يكادُ يفعله إلاّ المومسات. (حبيب).

(٢) التَّحَكُّكُ: التَّحَرُّشُ وَالتَّعَرُّضُ: وإِنَّهُ لَيَتَحَكَّكُ بكَ؛ أَيْ يَتَعَرَّضُ لِشَرِّكَ.

(٣) أي سَمِنَتْ، يُضْرَبُ مَثَلاً لِمَنْ تَعَدَّى طَوْرَهُ وَادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ.

النفوس وما يزيد على مائة مليون من الذهب الأحمر ثم لم تتمكن من تَخْضِيْدِ شوكتهم والتغلغلِ في أحشاء بلادهم كما كانت مَنَّتْهَا نفسُها وأوحى إليها غرورُها. ولولا ما دَهَمَ الدولةَ العثمانية من غوائلِ الحرب البلقانية لكانت العقبى على الطليان عَاراً وخُسراً وبواراً.

وأمَّا **إنْكِلْتَرَا**: فَعِنْدَهَا تُسْكَبُ الْعَبَرَاتُ وإليها ينتهي كل أمرٍ فظيع كما ستقف على تفصيل ذلك عندما نذكر الأمهات من جرائمها المركبة وجناياتها المتسلسلة على العالم الإسلامي بما ليس فوقه مزيد، ولكن أذكرُ لك الآن شيئاً مما شهدته من فَرْطِ وقاحَتِها وخبثها ودسائسها إِزَاءَنَا **وَإِزَاءَ دِيْنِنَا وَدَوْلَتِنَا** معاشر المسلمين.

إذا أخبرتُكَ -أيها المسلمُ!- بأني انقذتُ عمامةً بيضاء[1] من يد مبشرٍ إنكليزي في عاصمة الملك ودار الخلافة فماذا تقول في وقاحة الإنكليز وصفاقة وجوههم إزاءِ المسلمين؟

إذا أخبرتُكَ -أيها المسلمُ!- بأنِّي عثرتُ على كتاب بالعربيَّة وعلى

(١) لا يذهبنَّ الوهمُ أن صاحبها كان من العلماء، ولكنه هي القيافةُ ما زالت تُرَخِّصُ حتى اختلط الحابلُ بالنابل فلم يعرف العالِم من الجاهلِ وكانت إحدى الجنايات الكبرى على الدِّين وأبنائه. ولن تزال كذلك حتى تكون شعار العارفين يمتاز بها الغثُّ عن السَّمين ويعرف الشكَّ من اليقين... وإنما كان ذلك الجاهلُ من تلامذة دارِ الفنون. ومن جهلِه وبلادته أن كلَّ ما أقمته على المبشِّر من الحجَج القاطعة والبراهين الساطعة بالشكلِ الأول البديهي الانتاج من الأشكال المنطقية لم يكُ ليؤثر على دماغِه الكثيف بل كان يختارُ السكوت مُطرِقاً رأسه مغمضاً عينيه مبتسماً بعض الابتسام عندما أسأله عقبَ كل دليل أقيمه على المبشر. ودامت الحال على هذا المنوال أكثر من ثلاث ساعات فلجأتُ إلى المقدمات الشعرية والخطابية تَفَرُّساً مني أنَّها هي التي تناسبُ دماغه وكذلك كان: فما طال البحث بعدها أكثر من بضع دقائق وإذا به ردءٌ يصدِّقني فيما أقول معانداً للمبشِّر وخصيماً. (حبيب).

حواشيه بعضُ سطور بالإنكليزية، قد طبعه الإنكليز ودسُّوا فيه مــا شــاؤوا وشاءت أهواؤُهم تزويراً على المؤلِّف وكذباً وهو من كبارِ علماء الإسلام[١]، بل بُهتاناً على الفقهاء ودسّاً على الشريعة الغرَّاء، وأن قنصلَ الإنكليز كــان يُهدي هذا الكتاب إلى من يعتقد فيه السَّذاجة من المسلمين في البلاد العثمانية، فماذا تقولُ في دسائسِ الإنكليز وفرط وقاحتهم إزاءَنا وإزاء شريعتنا وعنعناتنا ثم إزاء دولةِ خلافتنا معاشر المسلمين؟

إذا أخبرتُك -أيها المسلمُ- بأنِّي دخلتُ مدرســةً إنكليزيــة في بلادنــا العثمانية وأنا مُتَنَكِّرٌ[٢] فما لَبِثَتْ مديرةُ المدرسة أن انتهزَتْها فرصة وأخــذت

(١) هو ابن طباطبا أو ابن طولون أنسانيه بُعد العهد. وقد دسَّ الإنكليز في الكتاب على علماء العراق إذ استفتاهم (هولاكو) في أنَّ اتباع أيُّ الاثنين أفضلُ المسلم الجائر أم الكافر العادلُ؟ فسألَني هذا السؤال مَنْ لم يكن أهلاً لمثله. فقلتُ له: ما أنتَ وذاك؟ إنما يسأله مثلُ هولاكو. ثم قصصتُ عليه نبأَ التاريخ وأفهمتهُ الوجه الشــرعي وأنَّ وَصْفَ الكافر بأنه عادلٌ جمع بين النقيضين؛ لأن العدالةَ من شروطها الإيمان، فمتى قيل كافرٌ فكأنما قيل غيرُ عادلٍ، واللهُ يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣. فَسُرَّ الرجل وأخبرني أنه سمعَ ذلك عن كتابٍ عند قنصل الإنكليز يهديــه إلى مَــنْ يريد. فَلَعَنْتُ الإنكليزَ وأتيتُ بالكتاب عفو الساعة من بعض من أُهدي إليهم ودقّقته في تلك الليلة ثم أثبتُّ أنه مدسوسٌ فيه باختلاف مسحة التعبير التي تختلف باختلاف العصور حتى اطمأنت القلوب على ذلك. وأخذت أُنَدِّدُ بــالإنكليز ودسائســهم وعزمت علىتأليف رسالة في ذلك. وبلغ القنصلَ الخبرُ فكفَّ عن توزيع الكتــاب وإهدائه وتنصلَّ وتملَّصَ وأنكرَ أن عنده نسخاً منه يوزعها. ثم لسوءِ الحــظ فُقِــدَ الكتاب بين أيدي المستعيرين كما هي العادة عندنا معاشر الشرقيين. وكنت يومئذ أكتبُ (خُطْبَةَ نَادِي الشَّرْقِ) فاعتظتُ بها عن تأليف رسالة الــردِّ. وأســتطيعُ أن أقول: إن هذه الحادثة كانت أحد الأسباب التي عجّلت عليّ بالسفر ثانية.(حبيب).

(٢) عشية يوم الأحد سلخ جمادى الأخرى سنة ١٣٣٢ دخلت هذه المدرسة ومعي فتى حمصي كنت اخترته دليلاً؛ لأنه يجهل شخصي. فأخذت أسأل المديرة عــن ســير ≺≺

تقومُ بوظيفة التبشير حتى دعتني إلى الصلاة وشرعت تذكرُ فضائلَها يوم الأحدِ خاصةً فما عسى أن تقولَ في الخبث الإنكليزي وصفاقة الوجه السكسونية؟

المدرسة وخطّاتها وتعاليمها والغاية من تأسيسها وعن نفقاتها ومورد هذه النفقات ثم عن عدد طالباتها، وكم فيهن مسلمات؟ وهل من المسلمات داخلات؟ (أي من يَبِتْنَ في المدرسة ليلاً) وكم عددُهن؟ وهل يدرسن العلوم الدينية هن والدُّرزيات مثلاً كالمسيحيات؟ وماذا عسى أن تكون فائدتُهن من درس ما لم يَعْنِهِنَّ؟ أفلا يُعَدُّ ذلك ضياعاً للوقت بالإضافة إليهن وإلى غيرهن ممن لَسْنَ من الطائفة المسيحية؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، ولكن بعدما طفت في المدرسة حجرةً حجرةً وموضعاً فموضعاً. وكانت سألتني ابتداءاً: من أي الطوائف أنت؟ فكان الجواب: إني من طائفة الإنسان. ثم ما زالت تكرر هذا السؤال -وشرر الريب يتلألأ في عينيها كأنما ينعكس إليهما من لهب النار التي كانت تتقد في أعماق قلبي غيظاً وأسفاً- ثم تقول: أَأَنت مسلمٌ؟ ما لكَ ولهذه الأسئلة؟ حتى إذا أظهرت الضَّجَرَ من فرطِ التَّسآلِ - وكنت قد حصلت على ما أريدُ- قلت لها: ألم يكفكِ أني من طائفة الإنسان؟ أتَرَينَ هذا الفتى؟ إنه معي منذ الصباح وما مرَّ بخاطري أن اسألَهُ من أيِّ الطوائف يكون بل كان حسبي أنه من طائفة الإنسان. ألا تخجلون معاشرَ الإنكليز؟ أحتَى في بلادنا تتعجرَفون علينا عجرفتَكم التي أنتم عليها مفطورون؟ يزورُ بلادَنا ألوف منكم في كل عامٍ ويسألون آلاف الألوف من الأسئلة فلا يَرَونَ منا إلاّ لُطفاً ورقّةً، ثم إذا ما زارَكم منا زائر في بلادنا وسألكم بعض الأسئلة في العمر مرةً يثقلُ على مزاجكم اللطيف. ولكن ذاك التعصب منكم وهذا التساهلُ منا هما اللذان أماتا حقّاً وأحييا باطلاً. وفي خلال هذه المدة كانت تقوم بوظيفة التبشير ودَعتني إلى الصلاة وفهمتُ أن بنات المسلمين يدرُسنَ الديانة المسيحية قولاً وعملاً فهنَّ طالباتُ مدرسة وراهباتُ دَيرٍ في آن واحد، وأولياؤهن جاهلون غافلون.

وإنما أطنبتُ في تفصيل القصة -مع أنَّها مع امرأةٍ أحقرَ من أن تُحاوَرَ فضلاً عن أن تُخطَّ محاورتُها بيراعٍ- ليأخذ القارئ من كل فقرة نصيباً من الاعتبار. فرُبَّ بسيطٍ من الأمر يكون وسيلة الانتباه لمركبات من الأمور. فعفواً أيها السُّذَّجُ! ومعذرةً إليكم أيها الأغرار.! (حبيب).

بل إذا أخبرتك -أيها المسلمُ!- بأنِّي دُعيت من قارعة الطريق بلطفٍ إلى استماعِ التبشير حتى إذا حاولتُ وحاورتُ انقلبَ اللطفُ عُنْفاً وأُسمعتُ المـرَّ من القول[1] ثم إذا زدتك إيضاحاً فقلت لك: كان ذلك في القدس الشريف بينما هي دار الحركات العسكرية والمسلمون قد أعلنوا الجهادَ المقدس وحملوا العَلَم النبوي ومرّوا به من نفس القدس الشريف خافقاً فوق الجيش الإسلامي، وقد صادفت ذلك وأنا قافل من حملة (الاكْتِشَافِ التَّعَرُّضِيِّ) في الزحف على (تِرْعَةِ السُّوَيْسِ) إذا ما أخبرتك بهذا -أيها المسلم- فهل تجدُ في نفسك حاجةً

(١) سمعتُ تراتيل ذات ليلة وأنا عابرُ طريق فتفرَّستُ أن هناك تبشيراً ثم تأكدتُ ذلك وأُخبرتُ أن القوم يتعرَّضون للمارين والعابرين. فذهبتُ في الليلة الثانية ووقفت في القرب من هنالك وتشاغلتُ بقدح كبريتة كأني استظلُّ بالجدار من الهواء وعلى مقربةٍ مني رجلٌ واقف، فدنا مني وسلَّمَ عليّ كأنما يريدُ الكلام، فبدأته به وسألته: ما هذه الأصوات التي أسمع؟ فأخبرني أنَّها تراتيل وأن هناك مواعظ حسنة مَن اتَّعظ بها فازَ بسعادة الدارين وأخذ يُثني ويُطري بالصَّاع الكبير، ثم دعاني إلى حضور الدرس كما يصدِّق الخَبَرَ الخُبْر!! وقال إنه يعطيني بطاقةً من قِبَلِه كيما يسمحوا لي بالدخول ويتقبلوني قَبُولاً حسناً فسألتهُ عن مذهبه ومذهب القوم، فقال: إنه كاثوليكي وَهُمْ بروتستانت. فقلتُ: إذا كان الأمر كما اثنيتَ وأطريت فلماذا لم تتبع مذهبَ القوم؟ لقد كان الأولى بك أن تطلبَ هذا الخير لنفسك ثم تدعو إليه غيرك. ثم ماذا عسى أن تكون العلاقةُ بينكم ليكون لبطاقتك عند القوم منْزِلةٌ؟ فبُهِتَ الذي كفرَ. ثم لما يئس مما كان يريدُ، اقترح عليَّ أحد أمرين متحكِّماً: إما أن آخذ منه بطاقة وأحضر الدرسَ، وإما أن لا أقف هناك. فسألتهُ: إذا لم أفعل لا هذا ولا ذاك يكون ماذا؟ فقال: إنه يزهقُ روحي ويودي بحياتي فأجبته على الإنصراف بشرط أن يعرِّفَني باسمه ومحل إقامته فعرَّفني بهما غير مكترث ولا هيَّاب، يقول: أتريدُ أن تخوِّفني؟ أعرِّفُك بهما قالاً وقلماً إن شئتَ ولا أخاف. ثم ما مضت هنيهةٌ حتى جيء به ورآني غير متنكِّرٍ اسأله عما جرى له مع الرجلِ الذي كان يحاورهُ وهو لا يدري أني ذاك الرجل. ثم كان ما حرَّمه وأمثاله هناك أن يعودوا إلى مثلِها. (حبيب).

أن تسمع أكبرَ منه كيما تأخذك رعدةُ دهشةٍ وهزةُ عبرةٍ ثم ينبض لك عـــرقٌ وتتكهرب منك أعصابٌ؟

مُحَاوَرَةٌ مَعَ إِنْكِلِيْزِيٍّ
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟

زرتُ دمشقَ قبل ست سنوات. فأُخبرت يوماً إن في النَّزْلِ الذي أنا فيـــه فتىً إنكليزياً تأتيه عمامةٌ بيضاء كل يوم حين لا أكون في النَّزْلِ. فحضـــرتُهما ظهيرة يوم على غِرَّةٍ، وإذا بالْمُعَمَّمِ يحدثُ الإنكليزيَّ عن أئمة المذاهب الأربعة رضوان الله عليهم وعن شيءٍ من دين الإسلام وآدابه ومقتضياته التي يطـــوِّر بها بنيه. فمما سمعته يقول جهلاً وزوراً وبُهتاناً يرويه عن الإمام أحمـــد بـــن حنبل ﷺ أنه كان يقول: إن شأنَ المسلمِ أن يكون خَشِناً شَرِساً معتزلاً مُنْزوياً يعيش في الدنيا وكأنه ليس فيها. فما راعهُ إلاّ صوتي أقول له: بماذا تحدِّثُ هذا الفتى، وأيَّ فتىً هو؟ فقامَا يستقبلاني وقد أخذَ الارتباكُ منهما مأخذاً. فـــأَبْهَمَ الحديثَ وطَفِقَ يُعَرِّفُني بالفتى مرتبكاً مُتَلَجْلِجاً. وفهمـــتُ أن الـــذي أَقْـــدَمَ الإنكليزيَّ على بلادنا هو طلبُ معرفةِ اللغة العربية على نفقةِ حكومته وكأنَّما تعطيه ثلاثين جنيهاً مشاهرةً. (وفهمتُ أخيراً أنه قد استأجرَ الرجـــلَ بجنيـــهٍ واحد منها في كل شهرٍ كيما يذاكرهُ في دروسه) ومن غريب الصُّـــدَفِ أني كنت قضيتُ سواد ليلتي في مطالعةِ رسالةٍ في النفس الإنكليزية) مما زادني على الإنكليز غيظاً وحنقاً. فأخذتُ أُصَعِّدُ النظرَ فيهما تـــارةً وأُصَـــوِّبُهُ أخـــرى وألحظهما شزراً ثم اذكرُ ما قرأتهُ ليلاً وما رأيته نَهاراً، وأفكِّرُ لو أنَّ أحدنا في بلاد الإنكليز سألَ أينَ الطريق؟ هل في القوم من يتنازل ليجيبـــه؟ ثم أقلِّـــبُ طَرَفِي من صاحبيَّ في طَرَفَي نقيضٍ ثم أقولُ: يا وَيْحَ الراقدِ من الساهرِ..!

وبعد ما أَخَذَتْ مني الأفكار مأخذها من وجوه شتى التفتُّ إلى الإنكليزي وقلت له: شرطٌ في المعاملة المجاملة أو المقابلة، وكان كلاهما يقضيان عليَّ أن لا أتنازلَ لمحادثتكَ علماً مني بأخلاقكم معاشر الإنكليز. ولكن سأفعلُ ذلــك من حيث كوني شرقياً فمسلماً فعثمانياً فعربياً: **فَالشَّرْقِيُّ** قريبٌ من الإنسانية، **وَالْمُسْلِمُ** يأمرهُ دينه بمكارم الأخلاق، **وَالْعُثْمَانِيُّ** معروفٌ باللُّطْفِ والمــروءة، ثم **الْعَرَبِيُّ** يرى من واجبه إكرامُ الضيفِ، وأنتَ ضيفٌ في بلادنا. ثم إكرامُ كــلٍّ بحسب حاجته، فلو كنت محتاجاً إلى الدنانير لأعطيناكها ولكن أُعطيك ممــا لأجله أتيتَ بلادنا. بَيْدَ أني قَبْلَ ذلك أريدُ أن ألقي إليك نَصِيحَتَيْنِ تنفعانــك حَيّاً ومَيِّتاً. الأُوْلَى: **أَنْ تَرْفُضَ التَّقْلِيْدَ**، والثانية: **أَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ النَّفْسِ الإِنْكلِيْزِيَّةِ**.

أما نصيحتي لك أنْ ترفضَ التقليد: فإن في الدماغ **شعلةً جوّالةً** بها يمتــاز الإنسان عن بقية الحيوان. ثم لا يطفئ نورها إلاّ التقليد، فَارْبَأْ بنفسك أن **تَهْبِطُ بِهَا إِلَى دَرَكَةِ الْحَيْوَانِ** بينما خلقَكَ اللهُ إنساناً. ثم من مظاهر التقليد **أنْ تُصَــدِّقَ كُلَّ مَا تَسْمَعُ** من دون تمحيص ورويَّة، فما أكثر الجهلاء، وما آفةُ الأخبــار إلاّ رواتُها. أتعرف أيَّ مظاهر الحياة أهمُّها؟ هي الأديان. ولكن من سوء طــالع الإنسان إن كان فيها أكثر تقليداً، ومن هنا جَنَــتِ الأرضُ علــى الســماء وتغلَّبت خُرافات الثرى على مقدسات الثريا. أريد أن آتي على ذلك بشاهد من نفسك فهل أنت صادقي إذا ما سألتُك؟ هل فكرت يوماً في نفسك لماذا كنتَ مسيحياً وأن هناك أدياناً أخرى ربما كان الحقُّ بجانبها؟ ما أظنك فعلت شيئاً من ذلك. وإنما رأيتَ أبويك مسيحيين فتبعتهما بناموس الارثِ وسُــلطة التقليد. وإلاّ لَمَا جعلت عرش الإله رحمَ امرأةٍ ووحَّــدْتَ بــين اللاهــوت والناسوت وجمعتَ بين النقيضين: الحادثِ والقديمِ، ثم صلبتَ إلهك بيدِ عبادهِ وجعلتَ الخالقَ في قبضة المخلوق..! ثم لم يكفك ذلك حتى جعلتــه ضــحيَّة الأهواء: فديةَ النجاةِ لكَ. ولإخوانك تكفيراً لمعاصيهم ومعاصيك. والفــادي

دون المفدَّى عقلاً، فمتى كان الإلهُ دونَ عبادهِ؟ ثم من ماذا كان يخشَى، وأيَّ مُنَازعٍ كان ينازعه لو أنه غفرَ لهم ذنوبَهم من دون أن يعذِّبَ نفسهُ علىخشَبة الصَّلب؟

ما أريدُ أن أناظرك في دينك، ولكن أردتُ أن أضربَ لك مثلاً في التقليدِ وآتي لك على ذلك بشاهد من نفسك. ما إخالُ تلك الإشكالات في دينك أمراً هيِّناً، فهل دارَ في خلدك أنَّها من أصعبِ المشاكل ثم فكــرت في حلِّهــا يوماً؟ ثم على أيِّ صورة حللت عُقدتَها أما كنت فاعلاً؟ لعلي أعثــرُ علــى أَثَارَةً[1] من علمٍ لديك فيما هنالك مما لا يكادُ يجري الفكر فيــه إلاّ ويتعثــر بأذيالِ الشكِّ ألف عثرة.

ألا أخبرك بأنِّي مسلم! لا لأنَّ أَبَوَيَّ مسلمان؟ ولكن لما قرأتُ علم الميزان -أعني المنطق- وتوغلتُ فيه عنَّ لي أن أشفعَ النظر بالعمــل ففكــرت: أيُّ الحقائق أَزِنُ بتلك الميزان؟ فرأيتُ أجدرها بذلك الأديان؛ لأنَّ الإنسان إذا ما قبل دِيناً أدخل نفسه تحت أوامرٍ ونواهٍ فقيَّدها بقيود وحملها حملاً ثقيلاً، فقبول الإنسان مثل هذا من غير يقين تطمئن به نفسه ضرب من الخطل في الــرأي. ومن هنا يتولد أمران: الأول هل مسألة الأديان باعتبار الأصل حق؟ أم هــي أمور وضعية شيّدها الوهم وساعد على انتشارها التقليد؟ الثــاني: أن هنــاك أدياناً متعددة ثم مختلفة، وكل ذي دين يقول الحق معي، والحق لا يتعدد فأيُّهم الصادق في دعواهُ وفي جانب أيِّ الأديان الحق ليكون صاحبه على هدى ولا تذهب أعماله سُدى؟

---

(١) في الأصل المطبوع: (أتاوة) والأَتْوُ: الاستقامةُ في السيرِ والسرعة. وعلى ما يبــدو ليس مراده؛ بل المراد: على أَثَارَةً من علمٍ، وهو المناسبُ سيما أن أسلوبَ الشــيخ حبيب متأثرٌ بالنصِّ القرآني وأصلهُ في قولهِ تعالى: ﴿أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف / ٤] وهو ما يروى أو يكتب فيبقى له أثر. والله أعلم.

فوضعتُ الأمرَ الأول أولاً، والثاني ثانياً على بساط البحث والتمحيص والتدقيق والتحقيق، ثم ما زلت أجلوهما على تلك الْمِنَصَّةِ وأسبر غورهما بذاك الْمِسْبَارِ[١] حتى كنت مسلماً بالدليل والبرهان لا بالوهم والتقليد.

وهنا أفضتُ في البحث عن دين الإسلام وآدابه وفضائله ومحاسنه ومحامده وأنه دينُ الفطرة كما وصفه القرآن، دنيوي أخروي، جثماني روحاني، يكفَلُ للإنسان سعادة الدارين إذا تمسَّك بأهدابه، ينطبق على روح الفضيلة والتمدن النَّزيه ويزيد العمران بَهجةً وبَهاءً. وكنت أثبِّت كل ما أقول بالدليل والبرهان..ثم قلتُ: هذا هو دين الإسلام بالرغم عمن يُشَوِّهُ حقائقَهُ من أعدائه كفراً وعناداً أو من أبنائه جهلاً وضلالاً، ثم يسمعهم أمثالُكَ من أُسراء التقليد فيصدِّقون ما يسمعون. ألاَ وأنَّ تلك المزايا التي فيه هي التي جعلتني مسلماً.

وأما **نَصِيْحَتِي لَكَ أَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ النَّفْسِ الإنْكلِيْزِيَّة**: فلأنَّها أبعد عن الإنسانية مع أن أول مراتب الشرف للإنسان كونه إنساناً. أتُنْكِر أن الإنكليزي بعيد عن الألفة، حتى ربما جاور أخاه في الإنسانية أعواماً، ثم لا عرفه ولا أراد أن يعرفه؟ أتنكر أن الإنكليزي لا يهمه إلاّ نفسه فلا يتصور غيرها ولا يشتغل لسواها، حتى أنه لو رأى مظلوماً يستغيث على خشبة الصَّلْبِ وكان فكاكهُ درهماً واحداً لما تحرَّكت فيه عاطفة الإنسانية فافتداه، ضَنّاً بكدِّ يمينه أن ينفقه على من سواه! أتنكر أن في طبع الإنكليزي العجرفة ومن أخلاقه الغطرسة حتى أن رابطة النكاح المؤسسة على المودة والرحمة لا تؤثر على ذلك شيئاً، فما أن ترى بين الزوجين رِقَّةً ولطفاً؟ أتُنكر أن في طبع الإنكليزي الفخرَ ولو

(١) كُلُّ أَمْرٍ رُزْتَهُ فَقَدْ سَبَرْتَهُ، وَالْمِسْبَارُ مَا يُسْبَرُ به. وَالسَّبْرُ: التَّجْرُبَةُ، وَسَبَرَ الشَّيْءَ: حَزَرَهُ وَخَبَرَهُ. وَالسَّبْرُ: اسْتِخْرَاجُ كُنْه الأَمْرِ. وَفِي حَدِيْث الْغَارِ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: (لاَ تَدْخُلْهُ حَتَّى أَسْبِرَهُ قَبْلَكَ) أَيْ أَخْتَبِرُهُ وَأَعْتَبِرُهُ وَأَنْظُرُ فِيْهِ هَلْ فِيْهِ أَحَدٌ أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِي. لسان العرب: ج ٦ ص١٥٠.

كان فَخْفَخَةً[1] كاذبةً، والكبرَ وإن مَقَتَهُ كلُّ الأنامِ، والاحتيال ولو اسودَّت به ناصية الحقيقة وفرط الجشع ولو انقرض في سبيله النسل، والاستئثار بالمنفعة ولو حفّتها الذنوب وكان فيها جناية على الأرض والسماء؟

ما أخالُكَ تنكرُ شيئاً من ذلك، فإنه مما حفظتهُ الدفاتر وتناقلته الألسُنُ وسجَّلتهُ عليكم معاشر الإنكليز أقلامُ المؤرخين. ثم ما إخالك تنكرُ أنَّها أخلاقٌ وطبائع لا تجدرُ بالإنسانية من حيث أنه إنسانٌ.

ثم هناك شيء آخر حَرِيٌّ بالتعجب والاستغراب: إن فيكم -معشر الإنكليز!- خُلَّتَيْنِ لا يلائم بعضهما بعضاً، يقول الشاعر:

وَتَكْبُرُ فِي عَيْنِ الْصَّغِيْرِ صَغِيْرَةٌ وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْكَبِيْرِ الْعَظَائِمُ

أما قومُك فيستكبرون الصغائرَ ثم يتكبَّرون، فإياكَ وأن تكون من المستكبرين المتكبرين. بما أنك من منتسبي الأدبِ أريدُ أنْ أضربَ لك مثلاً من ذلك لا يخرجُ عن المسلك الذي تنتسب إليه:

ماذا استعظمتم من (شكسبير) حتى جعلتُم له هَيكلاً؟ وهو الذي شبَّه عين محبوبته بعين العجل وقدَّ لها من شجر الزيتون قدّاً، كأنه لم يرَ الظَّبي وحور عينيه ولا غصنَ البَانِ تَميلُ به كفُّ النسيمِ. أما شعراؤنا فقد شبَّهوا مُقْلَةَ الْمَحبُوبة بعين الظبي وقدَّها بغُصْنِ الْبَانِ، ولم يؤثر عنهم مثل تلك التشبيهات الغليظة مما يدلُّ على كثافة طبع الشَّاعر، ثم لا اتخذنا لأحدهم هيكلاً ولا أكبرناهم ذلك الإكبار. أتسمعُ بشاعر المعرَّة؟ إن هذا الشيخَ الأعمى كان يتيمةَ الدهر وبيضةَ عقره. إنه أوجد في الشعر روح فلسفة الكون كأنما كان يبصره بألف مقلة حوراء، فللّه ذلك القلبُ البصير، وللّه تلك العينُ العمياء.! إن هذا الفيلسوف الكبير حلّق في سماء غير سماء العصر الذي كان فيه وغير

(١) فَخْفَخَ: فَاخَرَ بِالْبَاطِلِ.

الأرض التي نبتت فيها عظامه، فرقى إلى ما فوق الطبيعة يوحي إليها أكثر مما توحي إليه، وكذلك كان موجداً ومجدداً ثم مشى من ورائه أمثال شكسبير ينظر إليهم من علٍ وينظرون إليه من أسفل، فلشتَّان ما بين تلك النظرات..! ثم مع هذا لا صنعنا له هيكلاً ولا ألّهناه كما ألَّهتم شكسبير. أتدري لماذا؟ لأنا كُبراء لا نستكبر شيئاً ولنا مندوحة عن الكبرياء، ثم لنا ألفَ (مَعَرٍّ) وليس لكم غير (شكسبير) واحد.

ثم دعوتهُ إلى محكمة التاريخ ومثلت له الأمم هنالك تمثيلاً وفي مقدمتهم الإنكليز والافرنسيس والعرب في ربوعِ الأندلس، فما زلت أُتيه بالأمثال واكشفُ له عن وجوه الحقايق حتى اعترف صاغراً وأقرَّ مبهوتاً بأن الأندلسَ منبثق الأنوار، وأن العربَ أساتذةُ الأمم في مدرسة الحياة الكبرى، وأن للشرقِ على الغرب فضلاً إن أنكرهُ الغرب كان زَنِيْماً(١).

فلما علاَ الحقُّ -وشأنه أن لا يُعلى عليه- واضطرَّ الفتى إلى مثل هذا الاعتراف قلتُ له: إن وراءَ إقرارك هذا أمراً آخر إذا لم نَسْبِرْ غورَه فاتَنا من البحثِ بعض أعماقه:

سَلِ التاريخَ عن العرب الذين أقررت بأنَّهم أساتذة الأمم: ماذا كانوا بينها قبل ظهور الإسلام؟ وعن الشرق الذي اعترفت بفضله على الغرب: كيف كان موقفهُ أزاءه قبل أن بزغت من أُفُقِهِ شمسُ ذاك الدين الحنيف؟

إن التاريخ ليشهدُ – وهو أعدلُ الشاهدين – أن العربَ لم يكونوا قبل

(١) الزَّنِيْمُ: الْمُسْتَلْحَقُ فِي قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ، لاَ يُحْتَاجُ إِلَيْه، فَكَأَنَّهُ زَنَمَةٌ، وَهِيَ شَيْءٌ يَكُونُ لِلْمَعزِ فِي أُذُنِهَا كَالْقرْط. وَهِيَ أَيْضاً شَيْءٌ يُقْطَعُ مِنْ أُذُنِ الْبَعِيْرِ وَيُتْرَكُ مُعَلَّقاً. وَالزَّنِيْمُ: هُوَ اللَّئِيْمُ الَّذِي يُعْرَفُ بِلُؤْمِهِ كَمَا تُعْرَفُ الشَّاةُ بِزَنَمَتِهَا. مختار الصحاح: ص٢٧٦.

ظهورِ الإسلام شيئاً مذكوراً. ما كانوا إلاَّ مثالَ الوحشة وأعـداء التمـدن ونسخةً الهمجية الكبرى، وطاؤُهم الأرض وغطاؤُهم السماء، عبيدُ العصـا، ونُهْبَى الأهواء، أهلُ فوضى وسذاجةِ عيشٍ يأكلُ بعضهم بعضـاً، ثم إذا مـا طمعت فيهم أمةٌ ذهب الآكلُ والمأكول لقمةَ نَهِمٍ وطعمةَ جَبَّارٍ.

كذلك الشرقُ: ما زالت كفَّةُ الغرب راجحة عليه، وما بَـرِحَ وهـو في موقف المدافع أزاءه على الأكثر حتى ظهر الإسلام.

أَجَلْ، إن الشرقَ سبق الغرب في المدنية، فبينما كان نورُها ساطعاً في دول بابل وآشور وَفِيْنِيْقِيَّةَ ومِصْرَ من ربوعِ الشرق كان الغربُ وبَنُوهُ في ظلمـات الجهلِ وَالْهَمَجِيَّةِ. ولكن لم يُقَدَّرُ للشرق أن يؤسس دولة شرقية في قلبِ الغرب وصميم أوربا تخفقُ له عليهما أعلام حتى ظَهَرَ الإسلام. وإليك إثبات ذلـك إجمالاً:

هَرَمَتْ هذه الدولُ وظهرت دولة اليونان في جزائر اليونان واقتبست نورَ المدنية والعلم من هذه الدول الشرقية. وفي أثناء ذلك ظهرت دولـةُ الفـرس الذين امتدت مملكتهم -على عهد قورش في القرن السادس قبل الميلاد- مـن حدود الهندِ شرقاً إلى شواطئِ البحر المتوسط غرباً. وأدخَلُوا في حَوْزَتِهِمْ آسيا الصُّغرى وتلك الدولُ الْهَرِمَةُ وطمعوا بضمِّ اليونان إلى مملكتـهم الفسـيحة الأرجاء، المترامية الأطراف بينما كانت دولةُ اليونـان تطمـحُ أنظارهـا إلى الإستيلاءِ على الدول الهرمةِ تنازع الفرس على الاستئثار بالتغلب على بقايـا أشلائِها المبعثرة، فشبت نيرانُ الحروب بين الفرس واليونان ولكـن عـادت حملات الشرق على الغرب بالفشلِ.

كذلك كانت العُقبى من حملات (أتيلا) وجيوشه الهونيين[1]إذ انتشـروا

---

(١) الهون: أمة انصبَّت من بلاد المغول على الصينِ فحكمَتها مدة ثم أخرجَها الصينيون ≺≺

على ضفاف (فُولْكَا) و(الطونة) فأرهبوا الرومان وأوقعوا الرُّعْبَ في قلب الغرب وأبنائه حتى استولوا على كثير من شمالي أوروبا إلى الاوقيانوس. ثم نزلوا جنوباً حتى ضيَّقوا على صاحب (القسطنطينية) وأخذوا منه الجزية قهراً. ثم دوَّخوا (فرنسا) وذلَّلوا (إيطاليا) ولكن أفلَ هذا النجمُ بِموت (أتيلا) ولم يتمَّ الفوزُ للشرق على الغرب.

وأما ما كان من فوزِ الغرب على الشرق فإن اليونان -وهي أولُ دولةٍ غربيَّة عرفَها التاريخ على حدود الشرق- لما اشتدَّ عضُدها تغلبت على الشرق وأسكنت من بنِيها في آسيا على عهد اسكندر المكدونيِّ ثم انقسمت إلى أربع دول حكمت الشرق بضعة قرون، ثم خَلَفَها الرومان، وهكذا ما زالت الدولة للغرب على الشرق حتى جاء الإسلام.

فانقلبَ الطورُ وكانت الدولةُ للشرق على الغرب، إذ شَادَ المسلمونَ دولةً شرقية من غير أنقاضٍ، فطردوا (هِرَقْلَ) من (الشَّامِ) وقضوا على (مملكة الرُّومِ) في (آسيا) ثم شنُّوا الإغارة على (أفريقيا) ففتحوا (مصر) و (الإسكندرية) وامتلكوا (بُرْقَةَ) ودوَّخوا (طَرَابُلُسَ) ثم عبروا مضيق (سَبْتَةَ) ووطئوا تراب (أُورُوبَّا) فثلُّوا[1] عرش (رُودِرِيْق) واكتسحوا بلاد (الاسْبَانِيُول) ثم تغلغلوا فسَطَوا على (فرنسا) وبعض بلاد (إيطاليا) واستولوا على معظم جزائرِ (البحر المتوسِّط) وهكذا شرَّق المسلمون وغرَّبوا حتى خفقت أعلامُهم على هضاب (الصِّين) من آسيا شرقاً في القرن الأول للهجرة، وعلى ضفاف نَهر (لوار) من

وتفرَّقت، فجاءت قبيلةٌ منها إلى روسيا أوروبا وتوطَّنت هناك على ضفاف نَهر (فولكا) حتى القرنَ الخامس للميلاد فزحفت على شمال أوروبا وكان من أمرِها ما عرفتَ. (حبيب).

(١) الثَّلَلُ؛ بالتحريك: الْهَلاَكُ، ثَلَلْتُ الرَّجُلَ أَثُلُّهُ ثَلاًّ وَثَلَلاً، وَثَلَّهُمْ يَثُلُّهُمْ ثَلاًّ: أَهْلَكَهُمْ. لسان العرب: ج ٢ ص١٢٣.

أوروبا غرباً في القرن الثاني، ثم أسَّسوا دولة شرقية في صميم الغرب وفي قلب أوروبا وهي دولة (الأندلس) التي من أُفقها بزغت شمس التمــدُّن الأوروبي، وعلى دعائمها شيدت صروح الحضارة بأيدي العلم والفن، فكانت منبثــقَ الأنوار ومجتلى الأسرار. ولن يزال تاريخ المدنية ساجداً أمام هيكل عظمتــها الفاني شكراً لآلائها وامتناناً. كذلك ظلَّ نير الشرق على رقبة الغرب حــتى القرن الخامس للهجرة في إيطاليا، وفي غيرها حتى القرن التاسع. ثم بينما كان هذا النجم آخذاً بالأفول من وجهة كان هلال آخذاً بالطلوع مـــن وجهـــة أخرى: فإذا (الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ) تعبثُ بأقدار أوروبا كيف تشاء، وإذا هلالُهَـــا الوضَّاء في أُفُق العظَمة بدرٌ كاملٌ.

وهكذا ما زال الشرقُ ظاهراً على الغرب منذ ظهر الإسلام بعدما كـــان الفوز للغرب على الشرق حتى يوم ظهوره. اللَّهم إلاَّ ما كـــان في العصـــور الأخيرة من رقاد المسلمين إذ فشَا فيهم الجهلُ وابتلوا بأنفسهم فصار العلـــمُ فيهم قِيَافَةً والإمرةَ استبداداً وفرَّطوا في (التَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ) التي كانت لهم ســـيف الظفر وكهفُ العزِّ ومفتاح الفتوح.

تلك حقائق تاريخية –يا ابن بريطانيا الكبرى!– لا يكادُ ينكرها لبيـــب. وإنَّها لتشهد –لدى من تَلاَها فوعاها وفَقِهَ معناها وتدبَّر مغزاهـــا– أن ديـــن الإسلام غير الذي يظنُّه الجهال من ابنائه، وأهل الضلال من أعدائـــه. فـــلا يغرنَّك جاهلٌ، ولا تصدق كلَّ قائل، من دون تمحيص، وإيَّاك والتقليـــد، ثم لك الخيارُ في التقرُّب من الإنسانية، والتجرُّد عن النفس الإنكليزيـــة، وفيمـــا فصَّلتُ لك وأجملت كفايةٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم انتقلتُ إلى البحث عن الشعر العربي لأقفَ على حظِّه منه، ثم وفـــاءً بالوعد، فذكرت له أن الشعر العربي قد مرَّت عليه انقلابات شتَّى يمكننـــا أن نلخِّصها بثلاثة أدوار، فأيُّ أدواره اخترتَ، سَكَنَتْ إليه نفسك وجاشَتْ لـــه

عاطفتك وتحركت نحوه إحساساتك؟ فقال: أحببتُ (ديوان الحماسة) وذكر أن الذي أعجبه منه كونه حقيقياً أكثر منه خيالياً وأن الجدَّ فيه غالبٌ على الهزل... كلمة ربما كانت أشدَّ وقعاً عليَّ من هذيان (الْمُعَمَّمِ) صاحبه. قلتُ في نفسي: إليك المشتكى ربِّي إليك.. ورُحماك بديع السموات والأرض رحماك،! هذا يختارُ ديوان الحماسة من الشعر العربي ينظر إليه وهو في زاوية الهجران، بنظرٍ نافذ فينتقيه من بين أطوارٍ مختلفة للشعر وأدوار بعيدة كغائص البحرِ يلتقط الدُّرَّ من قعرِه العميق. وذاك يعمي بصره وبصيرته الجهل وتنسدُّ في وجههِ كلُّ طرق الكلام إلاّ ما كان من ذلك الهذيان الذي جاء به إفْكاً وزوراً، فشوَّهَ وجهَ دينه الحنيف إزاءَ عدوِّه اللدود شر تشويه وجنى بذلك على أشرفِ مسلك اندسَّ فيه - كما تندسُّ الجرثومة في بدن الصحيح تنتقل إليه من مجذوم- فمثَّله في نظر هذا العِلْجِ أسوأَ تمثيلٍ. آهٍ للغافل من المنتبه، ويا ويحَ الراقد من الساهر..!

ثم التفتُّ إلى الإنكليزيِّ وقلتُ له: لقد سدَّدت وقاربت فإن هذا النمط من الشعر هو المختارُ عند العرب وقد صرح بذلك شاعرُهم حيث يقول:

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ   بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَّهُ صَدَقَا

وإن اختيارك هذا يدلُّ على أن فيك قابلية للتجرد عن النفس الإنكلزية، وإن نصيحتي لك في ذلك كانت كالسَّهم الذي يصيبُ مرماه؛ لأن الانفعالات الشعرية من أكبر عوامل التطوير. فما أحسنَ طالِعَك إذا طوَّرك الشعرُ العربي على أحسن أدواره، فكنتَ من الذين يعجبون بالحقيقة ويخضعون أمامها تقديراً وتقديساً، لا خدعةً واحتيالاً وتلبيساً وتدليساً كما عُرِفَت به أمة الإنكليز من قديم وحديث.

ثم تركتهُ وصاحبه وقد بلغت منهما فوق ما كنت أريدُ فطلب إِلَيَّ تكرير مثل هذا اللقاء، فقلتُ له: هيهات! إنه تنازلٌ فعلته لحاجة في نفس يعقوب

قضاها وما كنتَ لتتنازل أنت لمثله لو كنتُ في بلادك، كما تعرفه أنت يقيناً وأودُّ أن لا يكون مجهولاً لدى صاحبك هذا. فَعَلَتْ وجه صاحبه حمرةُ الخجل وأخذته هزَّةُ الانتباه وكان ذلك آخر العهد بتعهده النّزل جيئة وذهاباً.

اسْتِطْرَادٌ
فِي الْمَدَارِسِ الأَجْنَبِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ

ما سمعتُ فيما سمعت ولا رأيتُ فيما رأيت أشدَّ ضرراً وأسوأ عاقبةً للمسلمين من المدارس الأجنبية في بلادهم. طالما زرت هذه المدارس معروفاً ودخلتها متنكراً فجسست لها نبضاً وسبرت غوراً واستطلعت خبأً، فإلى الله المشتكى من زفرات تتصاعد من أعماق الضمير أشبه بلهب النيران.

أَمَا وَاللهِ -وهي حلفة اعتقاد- إن هذه المدارسَ لأكبرُ ضرراً علينا من المدافع والبنادق تمطرنا ناراً في سوح الوغى وميادين القتال. في الحرب تموت النفوس، وفي هاته المدارس تموت العواطف، ولشتّان ما بين الإثنين: ذاك يموت شهيداً وهذا يحيا بليداً، أحدهما يموت في سبيل إحياء الأمة، والآخر يحيا في سبيل موت الأمة، وإنَّهما لأخوان، ولكنما فرقت بينهما المدارس الأجنبية.

معذرة إليكم معاشر الشبيبة الإسلامية من مُتخرِّجي المدارس الأجنبية. ألا تظنوا إني وَاتِرُكُمْ[1] شيئاً وإني أريد أن أُلحِقَ بكم وصمةً وأنسب إليكم الجريرة عمداً. ولكن هي الحقيقة قَتَلْتُها خُبُراً فجئتُ أصدعُ بها لا استهتاراً بكم، ولكن إشفاقاً عليكم ثم خدمة لأمثالكم من أبناء القرآن.

---

(١) وَتَرَهُ حَقَّهُ، يَتِرُهُ: نَقَصَهُ. وَقَدْ وَتَرْتَهُ إِذَا أَصَبْتَهُ بِمَكْرُوهٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد /٣٥] يريدُ أنه لا ينقصُ من شأنِهم ولا يريد بهم مكرُوهاً.

أليست الحقيقةُ بنتُ البحثِ؟ فهلمُّوا نضعها على بساطه تبياناً وتمحيصاً: ناشدتكم الله إلاّ ما أصغيتُم إلى صوت الضمير ثم شهدتم بما يشهد ومِلتُم معه حيث يميل. إنه لصوت الحق لا عوج لديه ولا تحريف. تسمعونه يقول ماذا؟ ما إخال ضميراً طاهراً يشهد أو دماغاً مفكراً يتخيل أن أجنبياً لا تجمعنا وإياه جامعة، يأتينا من بلاد شاسعةً فيبذل الذهب الأحمر ويقيم الصُّروح الشامخات ويقتحمُ متاعب ويستسهل مصاعب وليس له غاية من ذلك. فما هي الغاية يا ترى؟ أطَلَباً لخيرنا وخير بلادنا؟ أن قومَهم وبلادهم لاحق منا. أم خدمة للإنسانية؟ فلماذا لم يخدموها في منابت أرومتهم.. ومتى كانوا للإنسانية خدماً؟ أم شغفاً بسواد عيوننا وحمرة وجناتنا حماقة منهم وسذاجة؟ إن السذَّج الحمقى من يعتقدون بمثل ذلك.

مهلاً معاشرَ الشبيبة مهلاً.! أتنكرونَ أن بعض المدارس الأجنبية تضطرُّ أبناءَ المسلمين أن يحضروا أوقاتَ الصلاة وأن هذا من شروط الدخول للمدرسة والقبول؟ فليتَ شعري أتلكَ مَدَارِسُ أَمْ كَنَائسُ؟ أتنكرون أن بعض المدارس الأجنبية قائمةٌ على مبادئ اللادينية[1] والطبيعة سارقةٌ والصحبة مؤثرةٌ.

كَالْرِّيْحِ آخِذَةً مِمَّا تَمُــرُّ بِــهِ نَتْنَاً مِنَ الْنَّتْنِ أَوْ طِيْباً مِنَ الْطِّيْبِ

ثم التقليدُ من الغرائز في البشر، والأطفال إليه أقرب، وهو في التلامذة إزاءَ

(١) كالمدرسة العلمانية للافرنسيين في بيروت. وإني لأذكر يوماً قبل ستة أعوام أتاني رجل دمشقيٌّ فأخبرني أنه قد زارَ مع بعض مواطنيه أحدَ أبناء وجهاء دمشق في المدرسة المذكورة وكان قريبَ عهدٍ بالدخول إليها لم يحصل الرَّيْنُ على قلبه بعدُ فشكا إليهم ما يعانيه من نفخِ مبادئ اللادينية في روحه وما يعانيه من فرطِ الإهمال في الآداب مما يخجَلُ القلمُ أن يخطَّ فيه حرفاً. ثم زادَ في الشكوى أن كلتا الحالتين من الأساتذة ولكن الأولى منهم عمداً وابتداءً، والثانية إهمالاً ورضاءً إذ قد شكى إليهم من مثلِ تلك الفظائع فكان نصيبهُ التعزير وعُدَّ ذلك منه فضولاً لتداخله بشأن اثنين يملكان حريَّتهما!! (حبيب).

الأساتذة أمكن، شأن المفضول مع الأفضل، ولا شكَّ أن التلميذ يكبر أستاذه ويعتقد فيه الفضل عليه، ثم أدمغة الأطفال أضيقُ من أن تتسع للاستدلال فتضعُ الحقايقَ على منصة التمحيص؟

أتنكرون أن تلميذ أيَّة مدرسةٍ كانت إنما يدرسُ فيها جغرافيةَ بلادها، ويتقنُ لغةَ قومها، ويقرأُ تاريخَ دولتها وأمتها، حتى يحصل من ذلك على معرفة تامة، بينما يجهلُ من بلاده ما وراء دارِه، ومن لغة قومه ما يقوِّم من أَوَدِ لسانِه، ومن تاريخِ دولته وأمته ما يعرف به وجودَهما؟

أتنكرون أن التلميذ صورة مصغَّرة من أُسْتَاذه وأن أساتذة المدرسة رهن نظامها الذي اسست عليه وأن لذاك النظام محوراً يدور عليه وغاية هي المبتدأ وهي المنتهى؟ ثم هل من التعقل أن تكون غاية الأجنبي غير أجنبية؟ أم لا يعدّ خطلاً في الرأي أن عدو دينك ووطنك وأمتك ينفخ فيك روح التديّن والوطنية والمليّة؟

أتنكرون أن الطفل أشبهَ بقطعة عجين يصوِّرها المربِّي كيف يشاء، وأن المدرسة دار التربية الكبرى؟ فليت شعري -أيها التلميذ الغَرُّ!- كيف يصوِّرك الأجنبيُّ في مدرسته؛ كما يريد دينك ووطنك وأمتك، أم كما دينه ووطنه وأمته يريدون؟[1]

---

(١) لا أثر بعد عين فاستمع لما يتلى عليك: دعيت إلى المدرسة العثمانية في دمشق فزرتُها أواخرَ ذي القعدة سنة ١٣٣٢ فأخبرني رئيسها الغيور بتسعة صبية (ولا أقولُ رَهْطٌ) أتوه من المدارس الأجنبية وفي عقائدهم زيغٌ عرفه منهم التلامذة فأخبروه به ثم تحققه بنفسه. فأحضرتُهم -وأصغرهم يناهزُ العشر وأكبرهم غلامان يزيدان سبعة- ثم خيّرتُهم بين أن يتكلموا جميعاً أو يختاروا أحدَهم للكلام مع بقاء حرية القولِ للباقين. فاختاروا الثانية وأخذنا في البحث، وكنت مهَّدت لهم ما أذهبَ عنهم الرَّوْعَ وجرَّأهم على القول فلم يكتموني حديثاً. فلا واللهِ ما كان ليمرُّ ≺≺

أتنكرون أن دماغَ الطفل أشبه برقعة الحساب خالية لم يُكتب فيها بعدُ شيء وأن المدرسة أشبه بقلم المحاسب، ثم التعليمُ في الصِّغَرِ كالنقشِ في الحجر؟ إلاَّ أن هذا المحاسب لا يخط إلاّ أرباحه، وأن كل فراغ من تلك الرقعة يملؤه

بخاطري أن أسمعَ ما سمعتُ وأرى ما رأيت ولكن لا أثرَ بعد عين. سمعت اختلاقاً على خاتَم الأنبياء ﷺ كثيراً من قبل القسس والأساتذة قد لَفَّقُوهُ تلفيقاً ثم لَقَّنُوهُ تلقيناً ورأيتُ هذه الأدمغة الفطيرة قد صادفت لديها تلك التلقينات فراغاً فشغلته ثم رسخت فيه رسوخاً. ولقد كان بعضهم يدافع عما قد تلقنه وتيقنه دفاع المطمئن يلقى إليه بالشُّبَه والشكوك. ثم ما زلت أعالجُ تلك الأدمغة بما يلائم قابليتَها حتى تطهَّرت من أدرانها تطهيراً. هكذا تفعلُ المدارس الأجنبية بأطفالِ المسلمين، وأولياؤُهم جاهلون، ثم هكذا تعبَثُ زعانفة(۞) التبشير بجُهلاء المسلمين، وعلماؤهم غافلون. ولما علمتُ أن سيلَ التبشير قد بلغ هذا المبلغ بحيث أصبحَ يجرف أبناء المسلمين في مثل دمشق ذات العنعنات المجيدة في تاريخ الإسلام وأكبر بلد إسلامي بعد العاصمة في مملكة الخلافة رأيتُ أن أسعى لوضع سدٍّ أمام ذاك التيار الجارف فبذلتُ جهد المستطيع لأجمع كلمة العلماء على تأليف (جمعية علمية دينية) للغرض نفسه، فرأيتُ من الثقة وحُسن الظن إزاء هذا العاجز ما لا أرى باعثاً لأولئك الكرام عليه إلاّ ما كان من حسن النية مني وما فُطِرَ عليه أخواني الدمشقيون من محاسن الأخلاق، ولا سيما الأستاذُ العلاَّمة رأس الْمُحَدِّثِينَ وقدوةُ العلماء الْمُحقِّقين بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسني المغربي فإنه أبدَى من الاهتمام بالأمر ما يجدرُ بأمثاله من كبار علماء الأمة وصلحائها وطلبَ إلى الحكومة المحلية لتشَمِّرَ عن ساعد المساعدة وأَوْعَزَ إليها أنِّي لسانُ القوم في ذلك بدأً وإعادةً، نقضاً وإبراماً. ولولا ما كان أثناء ذلك من تعرُّض أسطول دولة الروسيا لإسطولنا في البحر الأسود وإكراه دولة الخلافة على خوضِ غمار الحرب العامة لَتَمَّ العمل. ولكن تبدَّل الطورُ ونادى هاتفُ القضاء: تكلم السيفُ فأسكت أيها القلمَ. على أن ما يخطه قلمي اليومَ بقية الشَّرر المتطايرُ من تلك النيران. (حبيب).

(۞) الزَّعَانفُ: الطَّائفَةُ منَ الشَّيْءِ؛ وَالْخَسَائسُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ رُذَالُ النَّاسِ زَعَانفَ عَلَى التَّشْبِيْه بزَعَانِف الثَّوْبِ، وَهُوَ مَا تَخَرَّقَ منْ أَسَافِلِ الْقَمِيْصِ. لسان العرب: ج ٦ ص٥٠.

مدادُ قلمه فإنه تضييق لدائرتها ونقص لها من أطرافها ضـــرورة أن الحيِّـــز لا يشغلهُ جسمان في آن واحد، ثم أن السوادَ الذي يتركه مثل هذا القلم في مثل تلك الرقعة صعب على الأيام أن تذهب بعينه أو أن تمحو منه الأثر على حـــد قول الشاعر:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبَـــاً خَالِيـــاً فَتَمَكَّنَـــا

ومن مثل هذا يتولد الثبات في الآراء والرسوخ في المعتقدات ومـــن هنـــا يقال: (مَنْ شبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ).

أتنكرون أن الأخلاقَ أَهَمُّ مظاهرِ الحياة[١].

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَـــتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُـــوا

وأن لكل أمة أخلاقاً[٢] تُلائم نَشْأَتَهَا الأولى ومنبتها الذي نبتـــت فيـــه

(١) مما لا شك فيه أن الأخلاق في الأمة يعبر عنها بالرأي العام والأعراف السائدة فيها، ومن الضروري الانتباه إلى أن الأخلاق أثر الإيمان، وأنَّها تأتي بعد الإيمان بالعقيـــدة وما يتفرع عنها، وفي الحديث: [أَثْقَلُ، أو أَفْضَلُ مَا وُضِعَ فِي الْمِيْزَانِ بَعْدَ الإِيْمَـــانِ حُسْنُ الْخُلُقِ]. فسكت الشاعر عن الإيمان لضرورته.

(٢) لا يذهبُ الوهمُ أنِّي أريد الأخلاقَ الشخصية، فلا نكـــران أننـــا في حاجـــة إلى إصلاحها بل تبديلها حتى نعودَ خلقاً جديداً. ولكن أريدُ الأخلاق المليَّة التي تعـــدُّ بمثابة الشِّعارِ للأمة وبمثلها تعرف الأمم ويمتاز بعضها عن بعض. وما أرى شـــاعرَ النيل إلاّ هذا المعنى أراد في البيت المذكور، فإن فيه من فلسفة الاجتماع ما هو أدقُّ نظراً وأسمى منْزِلةً مما لو حملناه على الأخلاق الشخصية وأردنا بها محاسن الأخلاق. على أن سياق البحث عن الأمم وإطلاق لفظ الأخلاق من دون قيد مما يكاد يعيّن المراد. ولا يفهمنَّ أني من الذين ينكرون تطوير الزمان ويجمدون على القديم مهمـــا كان. ولكن هناك منْزلة بين (المحافظ) و (المتجدد) تقوم على هذه القاعدة: خُذْ مَـــا صَفَا وَدَعْ مَا كَدَر. وإلى مثل هذا المعنى تشير إضافة الآباء إلى الصـــدق في قـــول الشاعر الجاهلي:

≺≺

وعشها الذي درجت منه، وأن لها عنعنات تاريخية إنما تحفظها بحفظ أخلاقها الموروثة وتقاليدها القديمة، وإلاّ اندمجت في الأمة التي اصـــطبغت بصـــبغتها وتخلَّقت بأخلاقها ثم لا تلبثُ أن تذوب في تلك البوتقة وتتلاشى علـــى مـــرِّ الأيام كأن لم تكن شيئاً مذكوراً؟ وهذا هو التجنيسُ – وإن شـــئتَ قُلـــتَ التَّقْمِيْصُ– الذي تبتلع به الأمم بعضها بعضاً.

أتنكرون أن الطبيعة لا تقهر فمن بارزها لا يلبث أن يخرَّ صريعاً، وأن لها سنناً لا بدّ أن تأخذ مأخذها وتفعل مفعولها؟ ومن سُنَنِهَا أن يسيطر القـــويُّ على الضعيف فيبتلعه ابتلاعاً ويعبث به ما يشاء. ولا مرية أن المربّي أقوى من المربَّى، وأن التلميذ بجانب أستاذه ضعيف، وليس له أمام المدرسة وقوانينها غير الخنوع والخضوع، فليت شعري –أيها التلميذ الغرُّ– هل تستطيع أن تقهـــر الطبيعة فتثبت لك وجوداً غير الذي تثبته لك مدرستك وقوانينها وأساتذتك وتعاليمها؟ ثم إذا ما تغلَّب وجود على آخر وكان الغالب هو الأجنبي فهـــل ترى أنك اليوم عينك بالأمس؟

ما إخالُكم –معاشرَ الشبيبةِ المتعلِّمةِ– تنكرون شيئاً مما جئتُكم من تفاصيله بإجمال، فإنَّها حقائق لا سبيلَ إلى إنكارها، إذن في استطاعة الاجتماعي البصير أن يقول: يوم يتخرَّج التلميذُ من المدرسة الأجنبية يخرج بالجسد الذي دخـــل به، ولكن بغير الروح التي كانت في ذلك الجسد. **وَهَذِهِ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِـــي مِـــنْ أَجْلِهَا تَأْتِي الأَجَانِبُ إِلَى بِلاَدِنَا فَتُقِيْمُ صُرُوحَ الْمَدَارِسِ فِي رُبُوعِهَا.**

وَرِثْنَاهُنَّ عَـــنْ آبـــاَءٍ صِـــدْقٍ وَنُوْرِثُهَـــا إِذَا مِتْنَـــا الْبَنِيْنَـــا

فاحفظ هذا عن حُسن روية وتعميق نظر فإنه من أهم المسائل الحيوية للأمم، وإنه من مزالق الأقدام للأمة التي تريد التجدُّد وقد شعرت بوجوب السير إلى الأمام والتطور مع الأيام. (حبيب).

أَمَسْخٌ أَمْ تَنَاسُخٌ

لولا أن التناسخَ مما أبطله العقل والنقل لكان من أكبر حجج القائلين به ما تمثله المدارس الأجنبية على مسارح كيدها من مسخ أرواح على صور أخرى: إذ نرى كل مدرسة وعلى شاكلتها تلميذها -إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ- كأنما قد تناسخت فيه روح الأمة التي اسست تلك المدرسة لهذه الغاية. فلئن لم يكن ثمة ناسخ فإن هناك المسخ أخاه.

أجل: إن المدارس الأجنبية تَمسخ أرواح التلامذة مَسخاً من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

لا تعجل -أيها التلميذ الغرُّ!- فتغضب من الحق وتأخذك العزّة بالإثم. إنك لن تقهر الطبيعة، ولن تستطيع أن يكون بجانبك الفوز إذا ما أردت أمراً وأرادت غيره دولة كبرى، وإنما ذلك المسخ مرادها، ومعها الطبيعة لا معك، كما أوضحنا لك الأمر إجمالاً وتفصيلاً. ومن هنا لم تكن التَّبعة عليك بل على وليّك الذي استرعى الذئب فيك و لم يفكر في عقباه وعقباك.

وإن شئت ضربنا لك الأمثال وأثبتنا عليك دعوى وقوع المسخ فعلاً كما أثبتناه نظراً، وإليك البيان:

روَى لي مَنْ أثقُ بِهم: أن أخوين لأبوين كانا يمشيان على سَيْفِ الْبَحْرِ[1] يوماً وقد ألقت مراسيها فيه مدرعةٌ افرنسيةٌ تُقِلُّ جنوداً بحرية. وكان أحد الأخوين في مدرسة الافرنسيس والآخر في مدرسة عثمانية، فأخذ الأول يقول

(١) السَّيْفُ: سَاحِلُ الْبَحْرِ، وَالْجَمْعُ أَسْيَافٌ. وفي حديث جابر ﷺ قالَ: (فَأَتَيْنَا سَيْفَ الْبَحْرِ) أي سَاحِلَهُ. لسان العرب: ج ٦ ص٤٥٧.

للثاني: أعندكم مثل هذه المدرعة. أتملكون مثل هذا الجند؟ يفاخرُ أخاهُ العثماني بالمدرعة والجند اللذَيْنِ ينتسبان إلى المدرسةِ التي درس فيها فطوَّرته كما تشاء هي لا كما هو يشاءُ .(وقد نقلت هذه الحكاية في محاضرة ألقيتها في العاصمة قبل ست سنوات حملت فيها على المدارس الأجنبية في بيروت وغيرها حملة شعواء تنبيهاً لأفكار قوم وتحذيراً لآخرين).

وحكى لي آخرون: أن لرجل وَلَدَيْنِ وضعَ أحدهما في مدرسة إنكليزية والآخر في مدرسة افرنسية وقد أراد بذلك أن يعلِّم أحدهما الآخر ما يتلقاهُ في مدرسته فكانت النتيجةُ أن سمعهما ذات ليلةٍ يتجادلان، أحدهما يتعصَّبُ للإنكليز يفوِّقهم على الافرنسيين، والآخرُ يتعصبُ للافرنسيين يفوِّقهم على الإنكليز، حتى أدَّت بهما الحال أن يشهر كل منهما مسدسهُ ليقتل أخاه يذهب به ضحيةً تحت أقدام التعصُّب للقوم الذين يدرس في مدرستهم، والقوم في بلادهم لا يعرفون له اسماً ولا جسماً. ثم الأفظع من ذلك أن الأب المسكين لَمَّا أَلْحَى[1] عليهما باللائمة وأراد أن يحجزَ بينهما صارا عليه يداً واحدةً وأخذا يسبَّانه ويشتُمانه ثم يقولان له: إنك جاهلٌ لا تَفْهَمُ مثل هذه المباحث ولا تستطيع أن تكون بيننا حَكَماً!

وحكي لي عن تلميذ في مدرسة أجنبية: أنه كان يستجهلُ أَبَوَيْه في كل عملٍ يعملانه ويحقِّر لهما كل عادة ولو كانت عين الحكمة وجاءت بها نواميس السماء. لماذا؟ لأنَّها لا توافق تعاليم مدرسته وتطويراتها الأخلاقية.

(١) لَحَى الرَّجُلُ لَحْواً: شَتَمَهُ، وفي الحديث: [نُهِيْتُ عَنْ مُلاَحَاة الرِّجَال] أيْ مُقَاوَلَتِهِمْ وَمُخَاصَمَتِهِمْ، وَهُوَ مِنْ لَحَيْتُ الرَّجُلَ أَلْحَاهُ لَحْياً: إذَا لُمْتَهُ وَعَذَلْتَهُ، وَلَحَاءَ إذَا نَازَعْتَهُ. ينظر: لسان العرب: ج ١٢ ص٢٥٨. وقد يقالُ: أَنْحَى عليه باللأئمة؛ أي عرضَ له وقصدَ، أو بمعنى مالَ عليه باللائمةِ وتعرَّضَ له بالكلامِ بما قد يرجعهُ عن الذي هو فيهِ. لسان العرب: ج ١٤ (نحا).

حتى أنه عمدَ إلى ورقة يوماً فرسم فيها أمَّه وأباه على شكل بقرةٍ وثورٍ. ثم أتى أمه يريها ذلك، كأنه يفخرُ بهذا الأدب الذي أدَّبته عليه المدارس الأجنبية!!

وبدت عَجْرَفَةٌ من شابٍّ مع من يفضلهُ بكل مظاهره، ثم شفعها بأخرى تعدُّ حقاً بالإضافة إلى البخل الأوروبي وباطلاً بالنسبة إلى كرمِ النفس الشرقي، وفي خلال ذلك كان يتدفقُ طيشاً ويسيل خفّةً وكان الذي يحاوره يقابله بتُؤْدَةٍ وَوَقَارٍ، يقول لهُ: إنما أتلفتَ لي عنقود عنبٍ لا يساوي نصف درهم و لم يكن ذلك منك عمداً وها أني قد سامحتُكَ فاذهب بسلام. فلم يكُ هذا ليؤثر على الشاب المتعلم! شيئاً بل ما زال يتبع العجرفةَ بأختها حتى سمعته يقول: على هذا أدَّبتني المدرسة الفلانية وبها أفتخرُ. فدعوته حينئذ وحسمت النِّزاع بينه وبين صاحبه ثم نصحتهُ بما أيقظَ فِكْرَهُ وأندى جبينه عرقاً.

ودعيتُ إلى حفلة في مدرسة أجنبية تعاقب فيها الخطباءُ والشعراء سُوَيْعَاتٍ، وهامُوا من الأحاديث في كل واد، حتى اهتزت من تحتهم أعواد المنبر وامتلأ من فوقهم صدر الفضاء، فلا –وشرف النفس وجلال الحمية– ما سمعت خلال كل ذلك كلمة تشفُّ عن عاطفة مِلِّيَّةٍ أو وطنية أو دينية، حتى كاد يُخيَّلُ إليَّ أني في صعيد أوروبي لا في بلد شرقي عثماني إسلامي. ثم الذي زاد في الطين بلَّةً أن أحد الخطباء ختم كلامه بالدعاء للعَلَم الذي يخصّ تلك المدرسة وأغفل ذكر (الْهِلاَلِ) الذي هو من أبنائه وعائش في ظل نعمائه. كذلك حتى انتهت الحفلة وفرغت جعبة الخطباء ما سمعت أحداً فاهَ بكلمة الهلال ولو سهواً؟ فإلى الله المشتكى من ساعة رأيت فيها المسلم في وطنه غريباً..! ثم غيظاً من ذلك وأسفاً كتبت مقالاً[1] في جريدة (الرأي العام) نَبَّهْتُ

---

(1) ذكرت فيه أن الاستقلال من جوامع الكلم وقسَّمته إلى سياسيٍّ، إداريٍّ، اجتماعيٍّ، علميٍّ، فكريٍّ، اقتصاديٍّ، تربويٍّ. ثم أثبتُّ حرماننا من كل أقسامه تفصيلاً بعد إجمال –إلاّ الاستقلال السياسي فقد تناسيته في الدواة إذ لم تكن الأمة قد تحررت ≺≺

فيه الأفكار وناقشت أنفسنا ثم ناقشت القوم الحساب.

وقد ضربنا لك غير ذلك من الأمثال من قبل مما لا يبقى معه ريب في أن المدارس الأجنبية تؤثر على العواطف المِلّيّة والوطنية والدينية وهكذا تَمْسَخُ الأرواح مسخاً. ولو أن في الْمَجال متّسعاً لأتيناك من تلك الأمثال بما تجف الْمَحابرُ قبل أن تنفدَ كلماتهُ. ولكن فيما ذكرناهُ غنية (وَكَفَاكَ مِنَ الْقِلاَدَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ) أو نقول: (حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ).

على أن هناك مثالاً من أجلى مظاهر التطوير محسوساً بالسمع والبصر لكل مَنْ ألقى السمع وهو الشهيد، ألا وهو تغلب لغات المدارس على لغات تلاميذها: فإنك ترى المتخرج من مدرسة افرنسية يتشدّق بلغة الافرنسيس ولا يحلو بفمه للطيف سواها، والمتعلم في مدرسة إنكليزية يتشدق بلغة الإنكليز. وإذا بحثت في مكتبيتهما وجدت أكثر كتبهما في تينك اللغتين. يلتقي المسلم منهما مع أخيه فلا يحيّيه بتحية الإسلام بل يقول له (بونزور) أو (بونسوار) ثم إذا ما صافحه للوداع قال له: (آديو) أو (أورفوار) وربما كان لا يحسن من الافرنسية غير هذه الكلمات. تلك حقيقة مطروحة على الطرق مبعثرة في الأزقة، بمرآى ومسمع من كل عابر سبيل فلا تحتاج إلى إثبات ودليل. ولطالما

بعدُ من الامتيازات الأجنبية التي جدَّدنا بإلغائها عهد استقلالنا القديم. ثم انتقلتُ إلى المدارس الأجنبية عند البحث عن الاستقلال العلميِّ والفكري والتربوي، وهناك ناقشت القومَ وأنفسنا الحساب لا سيما جرحَهم عواطفنا بإهمالهم تعليمَ اللغة التركية واتخاذَهم لسان التدريس غير لغة الأهلين أعني اللغة العربيةَ وأشرتُ من طرف خفي إلى ما تراني به اليوم مصرحاً من مسٍّ إحساساتنا بمثل تلك المغامز السياسية. ثم لم يمضِ شهرٌ على ذلك حتى قرأتُ في جريدة (طَنِيْن) أن حكومة المركز قد قرَّرت وجوبَ تعليم التركية في المدارس الأجنبية. وكانت هذه الواقعةُ في رجب سنة ١٣٣٢ قبل نشوبِ الحرب بأيَّام معدودات. (حبيب).

رأيتها بعيني وسمعتها بأذني فَعَزَّرْتُ عليها أناساً ونصحت لآخرين، حتى ربما جرحتُ عاطفة واسمعت من القول مرّاً[١].

بفيه الكثثُ[٢] ما أدري أيَّ أعذوبةٍ يرى في كلمة(آديو) دون (أستودعُك اللهٰ) أم أيَّ حلاوة يجدُ في لفظة(أورفوار) دون (إلى‌الملتقَى) ثم أيَّ فضلٍ يتصوَّرُ في (بونسوار) مثلاً على(السَّلامُ عليكُم) ولكن هي العاطفة إذا ضَعُفَتْ فلا يبالي صاحبُها أتابعاً كان أم متبوعاً. ثم هو التقليدُ إذا ما استولى على ضِعَافِ النُّفوسِ[٣]

---

(١) حكى لي مِمَّن عاصرَ الشيخ حبيب رَحِمَهُ اللهُ أنه كان يتصرَّفُ مع الناس كَرَجُلِ دَوْلَة مَسْؤُولٍ يحاسبُ ويقضي، قلتُ بمعنى دقيق: إنه كان رحمهُ الله يأمرُ بمعروف ظَهَرَ تَرْكُهُ، وينهى عن منكرٍ ظَهَرَ فِعْلُهُ ويتصرَّف بوصفه راعياً من موقعه، ولا سيما أنه كانَ من رجالِ الدَّولة في الرأي والفكرِ والسياسة.

(٢) كَثَّ الشَّيْءُ كَثَاثَةً: أَيْ كَثُفَ. وَلَعَلَّهُ تَصْحِيْفٌ للأَصْلِ: الْكِثْكِثُ وَالْكَثْكَثُ: دقَاقُ التُّرَابِ؛ وَفُتَاتُ الْحِجَارَة، وَقِيْلَ: التُّرَابُ مَعَ الْحَجَرِ. وفي حديث حُنَيْنٍ؛ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ عِنْدَ الْجَوْلَة الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ: غَلَبَتْ وَاللهِ هَوَازِنُ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ: (بِفِيْكَ الْكِثْكِثُ) دَقَائِقُ الْحَصَى وَالتُّرَابِ. لسان العرب: ج ١٢ ص٣٥-٣٦.

(٣) جمعني مجلسٌ وبعض ضعاف النفوس وهو لا يعرف لغةً أجنبيةً ولكن كان أخٌ حاضراً له يحسنُ الافرنسية. فجاء قنصل الإنكليز وهو يعرفُ التركية. فبينما كنا نتكلم بهذه اللغة أشار الرجل إلى أخيه أن يكلم القنصل بالافرنسية، ثم كلف القنصل بمثل ذلك، ثم لم تكفه هذه الخفَّة حتىشفَّعها بأبردَ منها، فقال للقنصل: كنا إلى عهد قريب نعلِّم أبناءنا الافرنسية ولكنا بعد اليوم سنعلمهم الإنكليزية إذ لم تعد الأولى تجدينا نفعاً كالثانية. فثقلت عليَّ تلك الخفة منه ورأيتُ من الواجب أن لا أسكتَ عن هذه الكلمة الفارغة خصوصاً لصدورها عن أحد نوَّاب الأمة–وإن كان الذي أنطقه بها ضعفُ النفس وقصر النظر في مغامزِ الخطاب– فالتفتُّ إليه وقلتُ له وللقنصلِ معاً: نحنُ لا نَهْتَمُّ إلاّ بلغتين: العربيةُ؛ لأنَّها لسانُ ديننا، والتركيةُ؛ لأنَّها لسانُ دولتنا، وما عداهما من اللغات عَرَضٌ ثم كلهن سواءٌ لاَ يَمْتَازُ ≺≺

جعل كفَّهم قدماً ووجودَهم عدماً. والتقليدُ أكبر الجناة على الإنسانِ.

إنَّ مسألةَ اللغةِ ليست بالأمر البسيط بل هي مسألةٌ جوهريةٌ، إنما يعــرفُ منبتُ الرجلِ بلُغَته، يرشدُك إلى ذلك اشتراكهما بالنسبة، تقول رجلٌ عربــيٌّ ولغةٌ عربيَّةٌ، مثلاً. وإذا رأيتَ امرءاً يدَّعي نفسه عربياً مثلاً، ثم رايتــه يجهــل العربية فإما أن تتهمهُ في نسبهِ، أو تقول إنهُ رجلٌ قد أضاعَ أصــلهُ، وكِــلا الأمرين غيرُ هيِّنٍ.

ولكن مع الأسفِ ترى أكثرَ المتخرجين من المدارس الأجنبية يحسنون لغةَ المدارسِ التي نَشَأُوا فيها أكثر من لغة أبويهم التي بِها يُستدل علــى أصــولهم وتعلم أنسابِهم، ثم بِها يعرفون من بين الأمم إذا ما حشروا في صعيد واحد. ثم ترى كثيرين منهم يَدَعُ لغته الأصلية ويتكلمُ باللغة الأجنبية من غير مَســيسِ حاجةٍ حتى في التافهِ من موقع الكلام كأنما هي لغتهُ التي رضعها مــع اللبــانِ يسبقه إليها الطبعُ. بل ربما تجد بعضهم حينما يتمتم بِها يأخذه شــيء مــن الغرور وَيَتَرَقْرَقُ في وجهه شيء من ماء الفخر فتفهم من ساعتك أنه لمثل هذه الغاية اختار تلك التمتمة. ثم الباعث الوحيد في كل ذلك تشرُّب الروح مثل هذه الروح في عهد الصبا ونعومة الإظفار، وهذا هو التطوير نفسه، وكذلك كانت مسألة اللغة من أجلى مظاهره. ثم هي من أكبر مقدسات المسخ الذي من ورائه يسعى الأجنبي وإياه يريد؛ لأن مَنْ مارسَ لغة قوم إكمالاً وإتقانــاً انتهت به إلى الوقوف على أخلاقهم وعاداتِهم ومظاهرهم وضمائرهم وغــير ذلك، ولا بد لمن دخل حانة خَمَّارٍ أن يشمَّ روائحَها، بل الأحرى أن نقول: لا بدَّ لمن ينامُ بين القُبور أن يَرَى أحلاماً مُزْعِجَاتٍ.

بعضُهنَّ عندنا على بعض. وما كان باعثُ الرجل على هذه الحكاكة غير التقليــد والخور الأدبِي. (حبيب).

وفي ختام البحث عن مضارِّ المدارس الأجنبية نلفت الأنظار إلى أمر ربما كان رأساً وإن جاء في البحث ذنباً. وهو أن هُناك مسخاً مضاعفاً على حد قول الشاعر:

فَلَوْ كَانَ رُمْحًا وَاحِداً لاَتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

وبيانُ ذلك: أن المدارسَ متعددةٌ، والمنازعَ بينهن مختلفةٌ، والأهواء متباينةٌ، وكذلك هناك اختلاف في العادات والأخلاق والأطوار. ولا شكَّ أن تربيةَ كلِّ مدرسة إنَّما تكون على مقتضَى منازعها وأهوائها وعاداتِها وأخلاقها وأطوارِها. فالتلميذُ الذي تطوِّره مدرسة افرنسية لا يُمكن أن تأتي تربيته ملائمةً لتربية التلميذ الذي تطوره مدرسة إنكليزية مثلاً. كذلك الدماغُ الذي تكوِّنه مدرسةٌ إيطالية مثلاً لا يُمكن أن يأتِي موافقاً لتكوين المدرسة الروسيةِ. ومن هنا يأتِي التبلبلُ في التربية -وإن شئت فقُلْ المسخ المضاعف- بين الناشئة الذين هم رجال الأمة في الغد. وما أخال اجتماعياً بصيراً يرى فوق ذلك من مصيبة على الأمة. وذلك؛ لأنه حياة الأمة تقوم بتكاتف أبنائها كأنَّهم كتلة واحدة، وظهور الأمة بهذا المظهر إنما يكون نتيجة اتحاد أفرادها في النظر والإحساس، وهذا موقوف على وحدة التربية والتعليم، وهذه هي الأساس. فَتَبَلْبُلُ تربيةِ الناشئة واختلاف التعليم عليهم في المدارس الأجنبية بمثابة معول لِقَلْعِ حياةِ الأمة من أساسها. وهذه هي الغاية القصوى للأجنبي، ولمثل هذا كانت المدارس الأجنبية أشدَّ وقعاً علينا وأكبرَ ضرراً من المدافع والبنادق تمطرنا ناراً في سُوحِ الوَغَى وميادين القتال.

من أجل ذلك ارى أن إنقاذ تلميذ من مدرسة أجنبية لا يقلّ في خدمة الدين والوطن والأمة عن إنقاذ جاهل من يد مبشر، وأن إقفال مدرسة أجنبية في بلادنا بمثابة فتح لنا في بلاد أعدائنا هدمت فيه معاقل ودكَّت حصون.

مَاذَا وَعَيْتُ عَنِ الأَسْفَارِ

قلَّبتُ صحائفَ التاريخِ في حاضره وغابرِه، فما عجبتُ من أمة عجَبي من المسلمين ملءُ تاريخهم عجائب وغرائب ونوادر وخوارق، صعدوا فإذا هم فوقَ الثريَّا بأسرع من لَمْحِ البصر، ثم هبطوا فإذا هم تحت أطباق الثرى في هوّة لا يدرك لها قعر. رأوا من الزمان طيّاً ونشراً وحلواً ومراً. اختلفت عليهم الشؤون بما ليس فوقه مزيد، وعضّهم ناب الدهر غير مرّة، وفُتنوا في الأجيال كثيراً ينالون من أنفسهم وتنال منهم الأمم: فكم من لطمةٍ غادرتْهم صرعى ثم أفاقوا، وكم من صرعة تركتهم موتى ثم بُعثوا.

ولكن مهما تنكَّرت لهم الليالي وعاندهم الدهر ونالت منهم يدُ الخطوب فما وُجدوا –ما وُجدوا– كاليوم، لا الحروب الصليبية، ولا مجازر التاتار، ولا فجائع هولاكو، ومظالم الجنكيز، ومصائب تيمور، ولا يوم فتنوا في أنفسهم يضرب بعضهم أعناق بعض، رأيت كل هذه المخالب لم تمزِّق من أديمهم ما مزَّقته يدُ بريطانيا الجانية. هذا التاريخُ بين أيدينا، فلنعطف إليه نظر الناقد البصير:

زحفَ الغربُ على الشرق ومن أمامِه الصليبُ، فما كان ليؤثر على القرآن شيئاً، وإنما هي حرب سجال. وللطعن والضرب خُلِقَ الرجال. ثم باء الغرب بالفشل و (قَلْبُ الأَسَدِ)[1] على ذلك من الشاهدين، فما أعظمكَ يا

---

(١) هو وليُّ عهد الإنكليز إذ رأى من صلاح الدين من اللطف وهو في أغلال أسرِه ما لم يكن ليراهُ وهو على عرشِ الملك مُتَوَّج بتاج الجلال. وبما أن الشيءَ بالشي يُذكر أحببتُ أن أُتْحِفَ القرَّاء بأبيات في ابنِ أيوب والحروب الصليبية –من قصيدة تاريخية لراقم الحروف تزيد على (٤٥٠) قافية– تذكيراً لإخواني المسلمين بسالف ≺≺

مسلمُ. وَيَرْحَمُكَ اللهُ يَا صَلاَحَ الدِّيْنِ..!

استعرت نارُ الفتن، واشتبكت الأمم ببعضهن، فشنّت الغارات، وعمَّ الهرج والمرج، وحكم السيف، وحمي الوطيس، فاستحر القتل، واشتدّ البلاء، وصبغت الأرض بالدماء حتى عادت وردة كالدهان، ومن وراء ذلك أموال نُهبت، وزروع أتلفت، ودور أحرقت، وبنايات هدمت، وهكذا تطاير الشرر وعمّ الشر وظهر الفساد في البر والبحر، ثم ماذا؟

إن هو إلاّ الموت لا بد منه إن لم يكن اليوم ففي الغد.

مجدهم ثم تنويهاً بشأن عُظماء الإسلام من أبطال التاريخ. وهي هذه :

لاِبْنِ أَيُّوبَ مَا سَرَى النَّجْمُ ذِكْـرٌ ... يَعْجَـزُ الشِّـعْرُ عَنْـهُ وَالشُّـعَرَاءُ
مَثَّلَتْهُ فِي الْبِيْضِ حُمْرَ الْمَنَايَا ... حِـيْنَ لِلـدَّهْرِ مُقْلَـةٌ رَزْقَـاءُ
فَـرَأَتْ أَزْرَقـاً طَوِيْـلَ نِجَـادِ ... لَمْ تَنَـلْ مِنْـهُ صَـعْدَةٌ سَـمْرَاءُ
وَجَرَى الـدَّهْرُ بِالْوَقَـايِعِ شَـوْطاً ... ثُـمَّ شَـالَتْ بِغُرْبِهَـا الْعَنْقَـاءُ
لاَ صَـلِيْبٌ نَجَـا وَلاَ حَـامِلُوهُ ... لاَ وَلاَ غَلَّـةٌ شَـفَاهَا مَـاءُ
إِذْ أَبَى الْحَنْثَ حَالِفٌ أَنْ يُرَوِّي الـ ... ـسَّيْفَ مِنْ نَاكِثٍ وَنِعْمَ الْجَـزَاءُ
فَرِجَالٌ أَبَادَهَـا السَّـيْفُ عَطْشَـى ... وَرِجَـالٌ رَوَّى صَـدَاهَا افْتِـدَاءُ
يَا رِجَالَ الصَّلِيْبِ خَلُّوْا الْعَـذَارَى ... مِنْ لُظَى الْحَـرْبِ إِنَّهُـنَّ نِسَـاءُ
تِلْكَ عَكًّا تَدْرِي وَتَشْـهَدُ صَـيْدَا ... أَنَّ قَوْمـاً أُسُـداً وَقَوْمـاً ظِبَـاءُ
وَاسْأَلِ الْقُدْسَ عَـنْ أَيَـادٍ عَلَيْـهِ ... يَـوْمَ إِمَّـا مَـنٌّ وَإِمَّـا فِـدَاءُ
كَانَ عَهْدُ الصَّلاَحِ عَهْدَ (صَـلاَحِ الـ ... ـدِّيْنِ) حَتَّى (لِلْمُسْتَضِيْءِ) ضِـيَاءُ
يَـا مِئِيْنـاً تَمَيَّـزَتْ بِـأُلُوفٍ ... لَكَمُوْا فِي كَأْسِ الْمَنُـونِ الْهَنَـاءُ
شَبِعَ الطَّيْـرُ مِـنْ لُحُـومٍ زَمَانـاً ... وَارْتَوَتْ مِـنْ دَمٍ جَـرَى الْغَبْـرَاءُ
وَلَقَـدْ قُوِّضَـتْ خِيَـامٌ وَجَفَّـتْ ... غَمَـرَاتٌ وَأُخْلِفَـتْ أَنْـوَاءُ

(حبيب).

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالْسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَنَوَّعَتِ الأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ[١]

ثم لم تكن تلك الرزايا إلاَّ سحابةَ صيف تقشَّعت عما قليل –وإن أبرقت بلاءً وأمطرت دماءً– وإذا المسلمون في أوطانهم لم تُغصب وعلى استقلالهم لم يُسلب. وأما المالُ فمنه خلف. وأما النفوس فلا بد من الموت. ويرحمُ اللهُ الشهداءَ. و ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢] و ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾[٣] أَجَلْ: ما كانت تلك الخطوب إلاّ عفو أيّامها. ولقد كان المسلم يُقتَل وسيفه بيده، ويُؤسَر ولكن في ميدان الكفاح، ويُقهَرُ ولكن بعد استفراغ القوى. وتلك من سنن الكون، ليس فيها وصمةُ هَوَانٍ ولطيخةُ عار. بل الموت تحت ظلال السيوف من أجلى مظاهر الشرف. ثم هناك الجنَّة إنْ كنا مؤمنين[٤].

أما مُصَابُ المسلمين بالإنكليز في هذه العصور الأخيرة فإنه أدهى وأمـرُّ من كل رزيَّة نزلت بهم في القرون الخالية: إنَّهم اعتدوا على شرفهم، ومزَّقوا جامعتهم، وأماتوهم موتاً أدبياً، وكل مصابٍ دون هذه الثلاثة يهونُ.

هما فريقان: فريق لَقَطَ الحَبَّ ووقعَ في الفخِّ. وآخر يُغَرِّدُونَ لهُ مـن وراء الاشباكِ. ثم كِلا الفريقين من خُبْثِ الإنكليزِ في بلاءٍ وعناءٍ.

أما الذين أوقعهم نَكَدُ الطالعِ في أشراك غدرهم وحبائل أسرهم فـإنَّهم

(١) أرادَ بالسَّبب مَظَنَّةَ السببِ وإلا فالشاعرُ والمصنِّفُ لا يغيبُ عنه أن السببَ الوحيد للموتِ هو انتهاءُ الأجَلِ.

(٢) آل عمران / ١٤٠.

(٣) النساء / ١٠٤.

(٤) يشير إلى الحديث الشريف [الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلاَلِ الْسّيُوفِ]. (حبيب).

يموتون بين أيديهم موت العُنُوزِ[1]، فلا يحيونَ سعداءَ ولا يموتون شهداء. بل يعيشون عيشة ذلّ وهوان ويموتون ميتة ذل وهوان: موقف خزي وعار ما رآه المسلم ولا رضيه لنفسه منذ فرض الله عليه الجهاد في كتابه المجيد حتى ابتلاه بالإنكليز.. آهاً ليوم كان يراق فيه دم المسلم على مذبح الشرف وتحت أقدام الدِّين الحنيف..!

وأما الذين لم يلقطوا الْحَبَّ ولا وقعوا في الفخ فإنَّهم لم ينجوا من سهام يفوِّقونها إليهم على غِرَّة، وبنادق يصوِّبونَها نحوهم من بُعد، تلك سهام المراوغات والمخاتَلات، وبنادق الغش والكذب والدس والنفاق، يوقدون بها نار الفتن ويلقون بذور الشقاق ليسهل عليهم الصيد في الماء العكر، ثم تفريقاً للجامعة وتشتيتاً للشمل كيما يأكلوا لحوم المسلمين ويشربوا دماءهم هنيئاً مريئاً.

طالما قُتِلَ المسلم ولكن لم يُسْتَعْبَدْ. وطالما غُلِبَ على أوطانه ولكن بعد أن تصبغَ بالدماءِ. ثم طالما مُسَّ شرف استقلاله ولكن بعدما يموت هو شريفاً. وما تخدرت أعصابه وماتت عواطفه قط، فرضيَ أن يكون عبد العصا يحيا مهاناً في

(١) الْعُنُوزُ: جَمْعُ الْعَنْز. ويضربُ مثلاً في هذا: (لاَ تَكُ كَالْعَنْزِ تَبْحَثُ عَنِ الْمُدْيَةِ). يضربُ مثلاً للجاني على نفسه جناية يكون فيها هلاكه، وأصله أن رجلاً كان جَائعاً بالفلاة فوجد عَنْزاً و لم يجد ما يذبَحُها به، فبحثت بيدها وأثارت عن مُديَةٍ فذبحها به. ومن وجه آخر على القدرِ والخبث، أن العَنْزة عند العربِ من جنس الذئاب، وهي معروفةٌ تأخذ البعيرَ من ذنبه؛ قلما تظهرُ لخُبثَها وغدرها. أو كما في المثل: أن امرأة يقال لها عَنْز أخذت سبيَّة فحملوها في هودج وألطفوها بالقول والفعل، فعند ذلك قالت: شَرَّ يَوْمَيْهَا وَأَغْوَاهُ لَهَا رَكِبَتْ عَنْزٌ بحدْجٍ جَمَلاَ. تقول: شرُّ أيَّامِها حين صارت تكرمُ للسِّباءِ، يضرب مثلاً في إظهارِ البرِّ باللسان والفعل لمن يريد الغوائلَ. لسان العرب: ج ٩ ص٤٢٣.

استقلال أُذِيْلَ هَيْكَلُ صَوْنِه[1] ووطنُ حِماه مستباحٌ حتى ابتلاه الله بالإنكليز. أَجَلْ: ما ماتَ المسلمون موتاً أدبيّاً حتى ابتلاهم الله بهؤلاء الطغام. إن لهم سياسةً أزاء المسلمين تَمْقُتُهَا الأرض وتلعنُها السماء، ولن يرجى للمسلمين خير ما داموا عنها غافلين.

إنَّهم يأتونَهم عُزَّلاً ثم يغتالونَهم اغتيالاً، يغدرون بهم غدراً، ويمكرون مكراً، حتى إذا تغلبوا على أوطانِهم وقضوا على استقلالهم فقلّموا أظفارهم وخدَّروا أعصابَهم وقهروهم قهراً وأسروهم تحت نير استبدادهم أسراً فهناك الداء العضال الذي لا يفارق صاحبه إلاّ على حافَّة القبر ثم هناك الموت الذي ما بعده نشور.. ما مات المسلم مَوْتاً سياسيّاً إلاّ وبُعث من مرقده حتى ابتلينا معاشر المسلمين بالإنكليز، هل سمعتم بقطر إسلامي دَبَّتْ إليه الجراثيمُ الإنكليزية ثم استطاع أن يطهِّر صعيده الطيّب من تلك الجراثيم؟ ما سمعنا برقبة مؤمنة استرقَّها الإنكليز ثم أصابت بعد ذلك تحريراً.. آهاً ليوم كان يموتُ المسلمُ كريماً ثم لا يلبثُ أن يُبعثَ من مرقده كريماً.

---

(١) يرسمُ صورةَ المسلم تحت الهيمنة الانكليزية أو الكافر المستعمر من أهل الباطل مهما كان دينه. وقوله (أُذِيْلَ) مِنْ ذَالَ الشَّيْءُ: هَانَ؛ وَأَذَلْتُهُ أَنَا: أَهَنْتُهُ وَلَمْ أُحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَيْه. وَالإِذَالَةُ الإِهَانَةُ. وفي الحديث: [نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِذَالَةِ الْخَيْلِ] أي امْتِهَانُهَا بالعملِ والحملِ عليها، أو الاستخفاف بها. والْمُذَالُ: الْمُهَانُ. أما قوله: (هَيْكَلُ) فهو الْبِنَاءُ الْعَظِيْمُ الْمُرْتَفِعُ أَوِ الْبِنَاءُ الْمُشَرَّفُ. وَالصَّوْنُ: وصفٌ بالمصدر، مِنَ الصَّوْنِ بِمَعْنَى أَنْ تَقِي شَيْئاً وَتُحَافِظْ عَلَى حِسْنِه. ومنهُ صَانَ عِرْضَهُ. لسان العرب: ج ٥ ص٧٦ (ذيل) و ج ١٥ ص١١١ (هكل) و ج ٧ ص٤٤٦ (صون) حيث أعطي المسلم استقلالاً بفرديته مهانٌ بناؤه غير محفوظ في الشرف والعزة لا يستطيع أن يحمي فيه ملّته وعرضه وغيرته الدينية، حال الأمة حيث قال: المذالة، وفي المثل: أحيلُ من مُذالَةٍ ! وهي الأَمَةُ؛ لأنَّها تُهان وهي تتبخترُ. وسيأتي مثلهُ في الجناية الحادية عشرة.

هكذا ابتُليَ المسلمون بالإنكليز: يعتدون على شرفهم، ويمزِّقون جامعتهم، ويميتونَهم موتاً أدبياً. يتربصون بهم الدوائر نيّةً وعملاً ويلقون إليهم بالأذى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ثم المسلمون في غمرة ساهون... فرحماك ربي رحماك! متى ينتبه الغافلون ويستيقظ الراقدون؟

الْجِنَايَاتُ الْمُتَسَلْسِلَةُ وَالْجَرَائِمُ الْمُرَكَّبَةُ مِنَ الإِنْكِلِيْزِ إِزَاءَ الْمُسْلِمِيْنَ

مَنْ أراد[١] أن يعرف الجرائم المركبة والآثام المتداخلة والجنايات المتسلسلة المرتّب بعضها على بعض ترتيباً لا يستطيعه إلاّ من تسفَّل من بني الإنسان في الحيوانية إلى أقصى درجاتها فليعمّق النظر في أعمال بريطانيا أزاء العالم الإسلامي وفيمن أوقعه نكد الطالع في أشراك خداعها وأغلال أسرها من إخواننا المسلمين. وإليك بعض البيان عن الأمهات من تلك الجرائم والجنايات:

الْجِنَايَةُ الأُوْلَى: سوءُ نيَّتها وخبث طويتها أزاء العالم الإسلامي انتهازاً للفرصة من غفلته. ولا يشتبه ذو لب أن سوء القصد من الجنايات الأدبية ومن طبائع الحيوانات الوحشية[٢]

(١) من هنا حتى مقطع الجناية السادسة عشرة منقول عن رسالتنا (حبل الاعتصام) ما عدا الجناية العاشرة والحادية عشرة. (حبيب).

(٢) غير أن سوء القصد من الحيوان منبعث عن توهُّمه مثله في الإنسان ابتداءً -كما قررهُ الباحثون عن طبائع الحيوان- فصَولَتُهُ عليه تعدُّ بالنظر إلى ذلك دفاعاً لا هُجوماً فتكون حقّاً شبيهاً بباطلٍ أو باطلاً شبيهاً بالحق. أما سوءُ القصد من الإنكليز فصَولَةٌ مُبطِلٍ وظُلمٌ محض لا يقبلُ التأويل. فيلزم من ذلك أن يكون الإنكليز أفظع وحشةً من الحيوانات الكاسرةِ وأشدَّ قسوة من الوحوش ≺≺

الْجِنَايَةُ الثَّانِيَةُ: تظاهرها بالخير للمسلمين بينما تضمر لهم شراً وهكذا دأبُها معهم: تظهر غير ما تضمر وتضمر غير ما تظهر: غش محض ونفاق بحت مما يجدر أن يسمى رأس الجنايات. ولهذا اختار الشاعر الحكيم الْمُجاهرة بالعداوة على الاخاء الكاذب حيث قال:

فَإِمَّا أَنْ تَكُوْنَ أَخِيْ بِصِدْقٍ فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِيْنِي
وَإِلاَّ فَاطَّرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي عَدُوّاً أَتّقِيْكَ وَتَتَّقِيْنِي

الْجِنَايَةُ الثَّالِثَةُ: قلبُها للحقائق عندما تتمكن من العبث بعقول البسطاء: فتراها تقتل الحقيقة باسم الحقيقة وتجهز على العدل باسم العدل، لا يزعها وازع ديني ولا يردعها رادع وجداني كما هو دأبُها مع المسلمين من قديم وحديث.

الْجِنَايَةُ الرَّابِعَةُ: إنَّها هي التي بدَّدَت شَمل المسلمين فجعلتهم أشتاتاً: كانت لهم حكومات صغيرة وإمارات غير يسيرة فألقت جراثيم الشقاق بين أقوام وخدّرت أعصاب آخرين وسحرت كل قبيل بما قصرت مداركه عن سوء عقباه حتى كانت النتيجة أن تناكروا وتنافروا وربما تناحروا وتشاجروا ثم تفرقوا أيدي سبا فهان عليها أن تزدرد قوماً بعد آخرين.

الْجِنَايَةُ الْخَامِسَةُ: أنَّها ريثما تستحكم حلقات أسرها في طائفة من المسلمين وتأمن مغبة ظلمها وسوء عاقبة غدرها لا تلبث أن تقلب لهم ظهر المجن فتخون العهود وتمزق الوعود لا تخشى الله ولا سواه ثم لا ترعى إلاًّ ولا ذمة، كما كانت سلسلة أعمالها مع مساكين الهند وبؤساء مصر وغيرهما من الأقطار الإسلامية.

الضارية وأخبث طوبةً. (حبيب).

الْجِنَايَةُ السَّادِسَةُ: سلبُها الحقوقَ السياسيَّة ممن في قبضة أسرها من المسلمين: إن في ربوع الهند عشرات الملايين من المسلمين تحكمهم بقوانين يجهلون واضعيها فضلاً عن أن يكون لهم فيها رأي حينما تبادل الأفكار في وضعها الواضعون. وأيُّ ظلم فوق أن تُسطِّر أقدار أمم بأيدي آخرين؟

الْجِنَايَةُ السَّابِعَةُ: سلبُها حقوقهم الاقتصادية: فإذا ما عرَّجت على مصر وتغلغلت في احشاء الهند رأيت المسلم آلة مسخّرة في عالم الاقتصاد كالجمل يحمل قربة الماء يرزح تحتها وليس له منها نصيب إلاّ جرعةً يُسقاها لتكون له عوناً على حمل الأثقال... ثم لا تكاد تشمُّ للنقود رائحة الوجود، وإنَّما هناك أوراق بأيدي القوم متى غضبت بريطانيا وأرادت بِهم نكالاً استأثرت بما في المصارف (بنوك) من الذهب والفضة وتركت لهم تلك الأوراق أشبه بالتميمة في جيد الصبي لا تدفع عنه موتاً ولا تردُّ أذى.

الْجِنَايَةُ الثَّامِنَةُ: سلبها حقوقهم الاجتماعية: فإنك لا تكاد تجد هناك منتديات ومجتمعات يتعارف فيها القوم فيفضي بعضهم إلى بعض بما عسى أن يخالج ضميره مما يعجز عنه الفرد ولو تولاه جمع لعاد على كل فرد منهم بفائدة ما أدبية أو اجتماعية أو اقتصادية أو عمرانية مثلاً. ولكن بريطانيا قد تركت المجال لمثل هذا أضيق من مفحص قطاة خشية أن تحتك الأفكار ببعضها فتلمع من خلال سحابِها بارقةُ الحقيقة فيبصرها القوم وتنتبه المدارك ثم تثور المشاعر وهناك ينكشف الستار ويفتضح أمر بريطانيا وسرّ سياستها الخلابة فربما تقع بمشاكل لا تنحل إلاّ بخسران عظيم.

الْجِنَايَةُ التَّاسِعَةُ: سلبُها حقوقهم الأدبية : فإنك ترى الجهل ضارباً أطنابه حيثما خفق العلم البريطاني من الأقطار الإسلامية. والعلمُ رأس الحقوق الإنسانية إذ به يمتاز الإنسان عما يشاركه في الجنس من الحيوان، ولكن

بريطانيا تتقاضى من أولئك البائسين عطيَّة (المعارف) ثم تنفقها في سبيل تعليم أبنائها مما يمهد لهم طرق الاستبداد في أولئك المساكين والتسيطر عليهم والاستعباد لهم والضرب على أيديهم كمن يأخذ من رجل سلاحاً بأمان ثم يستعمله في سبيل إتلافه والقضاء على حياته. وهذه أقصى درجات الغدر وغاية الخسَّة والنذالة. أروني أيها القوم مدراس لكم عالية وكتاتيب راقية وكليات ضخمة شادَتْها لكم دولة بريطانيا تثقيفاً لعقولكم وتنويراً لأذهانكم وتأديباً لنفوسكم وتَهذيباً لحواشيكم على حين أن ذلك حق أدبي في هذا العصر من الحقوق الطبيعية للإنسان. ما أرى عليكم شيئاً من آثار ذلك، ولو كان لما أقمتم على الضيم وأغضيتم على القذى واستكنتم للحوادث وسكتُّم عن البقية من حقوقكم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ لأن التمتع بالحقوق الأدبية للإنسان قطب رحى التوصل إلى بقية حقوقه في مضمار الحياة. وهذا الأمر نفسه كان الباعث لدولة بريطانيا على حرمان القوم من حقوقهم الأدبية ليسهُلَ عليها هضم البقية الباقية. وهكذا كانت الآثام متداخلة والجرائم مركبة.

الْجِنَايَةُ الْعَاشِرَةُ: تَمهيدها لطرق الرذائل فيما يدخل في حوزتها من بلاد المسلمين كيما تفسد عليهم أخلاقهم الملية وتربيتهم الدينية: فتراها تخدمُ النفوس في شهواتها أكثرَ من إبليس. ثم تسمي ذلك حرية وعدلاً، تعطي الرذيلة اسم الفضيلة تدليساً على القوم وتلبيساً. ثم من هنا تعدُّها نعمةً تمُنُّها عليهم، وما هي إلا النقمة التي من وجهتها يأتيهم الموت... وعندي أن هذه أكبر جناياتها لأن أشرف وأقدس مظاهر الحياة الأخلاق والتربية لا سيما ما كان منها ملِّياً ودينياً. وهذا أحد مناهج سياستها الخبيثة؛ لأن من فسدت أخلاقه وتربيته وعام من هوى نفسه في تيار شهواتها لا يستطيع أن يلتمس الفضيلة من بين هذه الرذائل، بل تلهيه شهواته أن يلبِّي داعي الفضيلة الذي يدعوه إلى استرداد حقوقه المهضومة من أيدي ظالميه، ومن هنا يسجل على

نفسه الموت الأدبي تسجيلاً. وهذا الذي دولة بريطانيا تريد، وهكذا يتمُّ لها الدست على قوم يجهلون.

الْجِنَايَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عَيْثُهَا[١] وعَبَثُهَا بأرواحهم – فضلاً عن متاجرتها بأموالهم وأوطانهم – إذ تسوقهم قهراً إلى ميادين القتال، تقرِّبُهم ضحايا تحت أقدام أهوائها الخبيثة وتريق دماءهم على مذبح جشعها الممقوت، لا سيما إذ تسلّح المسلم، ثم تكرهه على مبارزة أخيه المسلم وتحمِّله بذلك عار التاريخ وخزي الدنيا والآخرة ثم تستوجبُ له سخط الله ورسوله وتَهوي به في جهنم سبعين خريفاً. كأنَّها لم يكفها ما أوجبته لهم من الخسر في الحياة الدنيا حتى شفعته بخسر الآخرة كذلك، ليتم عليهم الشقاء في النشأتين: خَسِرُوا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ثم أفظع ما هنالك إكراهها المسلم على مبارزة المسلم في هذه الحرب العامة التي أصبح فيها المسلم يجاهد في سبيل الله وفي سبيل دينه الحنيف. فمهلاً مهلاً أيها المسلم المكرَه على حرب أخيك: لماذا تحاربه؟ إنه لم يحمل سلاحه ليحاربك، بل ليحارب من أجلك. فلماذا أنت تحاربه... ثم على ماذا..؟ ويحك إنه قد أتاك يحمل علم نبيك الشريف، في ظل خلافتك المقدسة، يجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، تأييداً لدينك، وتعزيزاً لقرآنك، ثم إحياء لمجدك ومجد آبائك الأكرمين. وَيْحَكَ ! إنه أتى ليحارب عدوَّك كيما يحرر رقبتك من رِبْقَة استعباده[٢]. رآك مظلوماً فجاء لينصرك، رأى حقَّكَ مهضوماً، ووطنك مغصوباً، وحماك مستباحاً، وهيكل صونك مُذالاً

---

(١) الْعُثَّةُ: الْمَرْأَةُ الْمَحْقُورَةُ الْخَامِلَةُ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ الْبَذِيَّةِ: مَا هِيَ إلاَّ عَيْثَةٌ.

(٢) الرِّبْقَةُ: الْحَبْلُ الْحَلَقَةُ تُشَدُّ بها الْغَنَمُ الصِّغَارُ لِئَلاَ تَرْضَعَ، وَأَخْرَجَ رِبْقَةَ الإسْلاَمِ عَنْ عُنُقِه: فَارَقَ الْجَمَاعَةَ. رِبْقَةُ اسْتِعْبَاده: شَدُّ الْكُفَّارِ الْمُسْلِمِيْنَ بِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ الله.

فأخذته هزَّة الحنان لك والرأفة بك والغيرة عليك فحمل سلاحه لا ليحاربك، بل ليحارب من أجلك، يخوض غمار الموت ليضحِّي نفسه تحت أقدام دينه ودينك ومجده ومجدك ثم علىمذبح حقك المهضوم ووطنك المغصوب. فلماذا تحاربه أنت، وعلى ماذا؟ ما أراك وإياه إلا على حد قول الشاعر:

أُرِيْدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيْدُ قَتْلِي عَذِيْرُكَ مِنْ خَلِيْلِكَ مِنْ مُرَادِ

أَنْصِفْ أخاكَ من نفسك: أَيُرِيقُ دمه في سبيلك ثم بيدكَ يراق ذاك الدمُ الطاهرُ؟ أنصف أخاك من نفسك: أيحارب عدوّك من أجلك، ثم تكون عوناً لعدوِّك عليه؟ وَيْحَكَ ! تدبَّر كل هذا ثم أنصف نفسك من نفسك فاتَّق الله واحذر التاريخَ..! أذكر يومَ تعطى كتابك بيدك لتقرأه أمام الله: أباليمين تأخذه أم بالشمال؟ ثم إذا ما قرأت مثل عملك هذا أفلا يكون عليك حسرة؟ وماذا عسى أن يكون جوابك إذا ما سألك عنه مولاك؟ ثم وَاخَجْلَتَاهُ أمام نبيِّك الكريم.. ووافضيحتاه أمام إخوانك المسلمين! هذا تاريخك يوم الدين ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالاَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾[1]ثم هناك تاريخ الأسلاف يقرؤه الأخلاف، فخذ لغدك من يومك واشفق على نفسك إذا ما ناقشوك الحساب أن تكون سُبَّةً وعاراً!

أجل، (مُكْرَهٌ أخَاكَ لاَ بَطَلٌ) إنك بصفتك مسلماً أَجَلَّ من أن يلحقك خزي الدنيا والآخرة، وإنما هي جناية سادتك الإنكليز، إذ يُكرهونك على حمل مثل هذا الخزي العظيم، ثم ربما عدّوه عدلاً منهم وإحساناً!

ولكن -أَيْقَظَكُمُ اللهُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ- أيها المُكرَهون! ممَّا أنتم تحذرون إذا لم تطيعوا أولئك الظالمين؟ أَمِنَ الموات؟ ها أنكم تُساقون إليه كُرهاً وأمامكم النار ومن ورائكم العار، أفليس الأَوْلَى بكم أن تُكرهوا عليه ونصيبكم منه

(١) الانفطار / ١٩.

الافتخار؟ ثم ما عند الله خير وأبقى يوم يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَــوْتِ بُــدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُــونَ جَبَانَــا

تَالله إنه لَلْوَهْمُ أنتم سجناؤُه والخمولُ أنتم أسراؤه، ثم إنه الشتاتُ أنــتم ضحاياه. حرِّكوا هذه اليد الشلاّء وأنا الزعيم أن تكون من فوقها يدُ الله.

الْجِنَايَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ: إنَّها بدلاً من التودُّدِ إلى العالَم الإسلامي رعايــة لعواطف من عندها من إخوانهم المسلمين تراها العدو الأزرق والبلاء الأسود لكل من آمَن بِمُحَمَّد ﷺ وعظَّم القرآن، تبكيتاً لأولئك المخدوعين وتنكيلاً، تقليماً لأظفارهم وتخضيداً لشوكتهم ثم تحكيماً لحلقات الأسر وشد الوثــاق. ومن هنا كان كل فتنة حدثت في قطر إسلامي أو كارثة نزلت فيه أو حادثة هزّت جوانبه فإنما موقدُ نارِها ومثيرُ غبارها هم أولئك الإنكليز أبناء السكسون الذين لا يريدون أن يصفو للمسلمين عيشٌ ولا يهدأ لهــم بــال. وإذا أردت تحقيق ذلك فخذ بيمينك خريطة الكرة وتاريخ السياسة بشِمالكَ ثم أرســل النظرَ إلى إقليم الهند العظيم وبلاد فارس ذات المجد القديم وإلى مسقط وعمان وقبائل نجد والعراق وإلى اليمن وأطرافها والسودان وأكنافها ومصر وأعرافها حتى إذا تحققت ما انتاب هذه الأقطار الإسلامية من فاجع الأقدار على يــد الدولة البريطانية علمتَ حق اليقين أنَّها –لا بارك الله فيها– رأس كــل بــلاء للإسلام والمسلمين.

الْجِنَايَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: مناوأتُها العداء للخلافة المقدسة الإسلامية عــداوة للعالم الإسلامي كما مرَّ بيانه. وتفصيل ذلك: أنَّها تعلم أن ميزان الموت والحياة للمسلمين خلافتهم العظمى فإذا ماتت ماتوا من حيث لا يرجى لهم مبعــث، وما دامت حيَّة فلا يخشى عليهم من الموت السرمد الذي ما زالت تتمناه لهم بريطانيا وتسعى من ورائه السعي الحثيث، فبعثتها هذه الفكرة إلى أن لا يكون

لديها عمل أهم من السعي لِمَحقِ الخلافة الإسلامية قطعاً للرأس وبتراً للذنب ثم إماتةً للعالَم الإسلامي ميتةً لا تقبل الريب كما تشتهي هي وتريد تكميلاً للجنايات وتشديداً للويلات، ثم إتماماً لما لها هنالك من الغايات.

الْجِنَايَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: فرطُ عدائها للدين الْمُحَمَّدِيِّ والشريعة الغرَّاء وفرط بُغضِها لأبناء هذا الدين وقرآنِهم الْمَجيد. وذلك حيث انتهت بها سلسلة الجنايات إلى هذه الجناية الكبرى وتفصيله: أنَّها بعد التدقيق والتعميق عرفت أن الخلافة الإسلامية حيّة رغم أنفها ما دام الدين الإسلامي حيّاً لأنَّها فيه دعامة كبرى وركن عظيم فلا يمكن القضاء على المسلمين إلاّ بمحو خلافتهم ثم يستحيل هذا أعني-محوَ خلافتهم- ما دام دينهم ثابتاً، فمن هنا كان أبغض الأشياء إلى الإنكليز وأثقلها عليهم الدين الإسلامي الحنيف، يرَون حياتَهم بموته وتمام منفعتهم بالقضاء عليه. وهذا ما دعا بعضاً من أعاظم ساستهم أن يصرح بسوء النية أزاء الروضة المطهرة النبوية وبعضاً أن يصرخ في مجلس الأمة البريطانية بأن العالَم لا يستريحُ ما دام القرآنُ موجوداً، علماً منهم بأن أسَّ الأساس لهذا الدين هو القرآن وسنَّة مَنْ أُنزِلَ عليه القرآن. ولكن (غلادستون) اللَّعِيْنُ[1] قد أطلق عاماً وأراد خاصاً وهو صادق فيما أراد باطناً: أجل إن العالَم البريطاني لا يمكن أن يستريح ما دام القرآن موجوداً؛ لأن الخائن خائف ولا يرجى مع الخوف راحة وأنه ليعلم خيانة قومه ودولته لأهل القرآن ثم يعلم أن هناك سلسلة تنتهي إلى هذا الكتاب المجيد وهي أنه: ما دام

(١) غلادستون، أو جلادستون: رئيسُ وزراء بريطانيا – خلال العهد الحميدي – وقف في مجلس الوزراء رافعاً القُرآنَ بيده مخاطباً زملاءه بقوله: (ما دام هذا الكتابُ بأيدي المسلمين يتدارسونه ويُقبِلُونَ على العناية به، فلن تقومَ لنا قائمةٌ، فلا بد من العملِ على انتزاع هذا الكتاب من عقولهم وقلوبِهم). ينظر: صحوة الرجل المريض: ص١٩٩.

هذا الكتاب حيّاً فالدين الإسلامي حي، وما دام الدين الإسلامي حي فالخلافة الإسلامية حية، وما دامت الخلافة الإسلامية حية فإن المسلمين لا يموتون، وما بقي للمسلمين حياة فلا بد أن يستيقظوا من رقدتهم يوماً ما فينتهزوا الفرصة ويستعيدوا من أبناء السكسون ما غصبته يد المكر والغدر والمخاتلة والمخادعة. سلسلةٌ حيوية للعالَم الإسلامي هي التي بعثت الدولة البريطانية والقوم السكسوني على التسلسل في الجنايات وركوب الجرائم المركبة والآثام المتداخلة فكانوا شر الأمم للمسلمين واشد الأقوام عداءً لهم وضرراً.

الْجِنَايَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: دسُّها على الدين الإسلامي من طرق متعددة وألاعيب شتّى لإفساد عقائد بعض والعبث بأفكار آخرين سعياً من وراء ضالتها المنشودة: فتراها تعزِّز (المبشِّرين) بينما تزعم لنفسها التفرد في حرية المذاهب والأديان فتبثُّهم كالجراثيم السامة في البلاد الإسلامية ليدنّسوا هواءً نقياً ونسيماً صافياً.ودسائسها للمقصد نفسه تحت ستار التعليم أشد وطأة وأكثر وبالاً إذ تحجّر على أدمغة الفتيان والفتيات من المسلمين فتخط على صفحاتها الخالية ما شاءت وما شاء هواها فلا يخرج من مدارسها الصبي أو الصبية من أبناء القرآن إلاّ وقد فسد منهما ما يعجز عن إصلاحه من ينتبه لهما في الزمن الأخير، علىأن أولياءهما عن ذلك غافلون.

وقد استطلعتُ هذا الخبءَ بنفسي في غير قليل من مدارسها المتخصِّصة للذكور والإناث فعرفت السرَّ في ضعف إيمان الذين ترعرعوا في حِجْرِ مدارس الإنكليز أو أُشْرِبَتْ روحُهم حبَّ أولئك الطغام على العمياء يقودهم التقليد ويسوقهم نكدُ الطالع. وثبتَ عندي عياناً ما كنت أعتقده فكراً من أن كل مدرسةٍ أجنبية في بلاد[1] المسلمين لم تشيد مبانيها الضخمة لسوادِ عيونِهم بل

(١) وقد ذكرتُ في هذه الرسالة شيئاً من ذلك ومن دسائس التبشير وما ينجم عن ≺≺

لتسويد صحائفهم الدينية والمليّة والوطنية بإفساد ما تحمل جـوانحُهم مـن الإحساسات الشريفة أزاء هذه المقدَّسات. ولو ذكرتُ ما اتفق لِي من تتبُّعِي دسائسَ الأجانب إزاء مقدساتنا وجناياتهم على أبنائنا في مدارسهم المشؤومة لخرجتُ عن الصدد في هذه العجالة ولمسَّتِ الحاجة إلى تأليف كتابٍ أكـبر منها ولكن أكتفي الآن بهذا القدر من البيان وفيه بلاغ لقوم يتدبرون.

الْجِنَايَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: فرطُ عدائها السياسيِّ للهلال العثماني: فـإن قولهم (مَا أُخِذَ مِنَ الصَّلِيْبِ يعود إلى الصليب وَمَا أُخِذَ مِن الْهِلالِ لا يعودُ إلى الهلالِ) كلمة أوَّل ما رنَّ صداها في غُرف السياسة البريطانية ثم نقلته الـريح وطيَّره البرقُ في سائر الأندية والْمَحافل السياسية. وما بقي على وجه البسيطة مسلمٌ واحد يوحِّدُ الله فلن ينسى المسلمون ما أظهره (إدوار دغـراي) مـن الدناءة والوقاحة أزاء الدولة العثمانية في حربها مع دول البلقان ممـا كانـت روحه وخلاصته تطبيق تلك القاعدة التي وضعها أسلافه اللئـام وذلـك: إذ أُعطي القرار في مبدأ الحرب بأنَّها لا تغير شيئاً من الخريطة الجغرافية حيث كان الظن أن الغلب سيكون في جانب العثمانية، فلما تحول طالع الحرب وبدا مـا لم يكن في الحسبان ضُرب بذاك القرار عرض الحائط وجعل الحكـم لأفـواه المدافع ورؤوس الحراب تنكيلاً للعثمانية وسلباً لأملاكها الموروثة منذ عصور. وما كان هذا التدبير والتغيير إلاّ في غرف السياسة والـبلاط الملـوكي مـن حضيرة (لندن) وما كان الباعث إليه إلاّ فرط العداء للمسـلمين وخلافتـهم المقدسة؛ لأن الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية الوحيدة الـتي لهـا حـق المطالبة بحقوق المسلمين والمحافظة على بيضة الإسلام؛ ولأن الهلال هو الممثل

كليهما من سوءِ التأثير كما مرَّ بيانه. وما يُرى من التكرار في بعـض المباحـث والمغامز فإنه منبعث عن تكرر المناسبات فيأخذُ الكلام مأخذه وليكون أشدَّ تمكيناً في الأذهان وتثبيتاً، فعذراً أيها القارئُ الكريم. (حبيب).

لعظمة الخلافة الإسلامية ومجد أبناء هذا الدين الحنيف.

تلك الأمهات من جنايات الإنكليز المتسلسلة وجرائمهم المركبة أزاءك، وأزاء وطنك، وأمتك، ودينك، ودولتك، ومجدك، وخلافتك، بل أقول أزاء دنياك وآخرتك يا مسلم، يا ابن النور وربيب القرآن..!

وإن من وراء هاتيك الأمهات فروعاً ينفد دون استقصائها الكلم وتجف الْمَحابر وتكَلُّ الأقلام، ولكن الكليات مرآة التشخيص للجزئيات، فَعَمِّقْ النظر وأمعنْ الفِكْرَ[1] حتى إذا تحققتَ أن للإنكليز مظالم منتشرة في العالم الإسلامي انتشار العروق في البدن، متعاقبة تعاقب الليل والنهار؛ نَادَيْتُ على رُؤُوسِ الأشهاد: ألاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْظَّالِمِيْن.

لو أردتُ أن أضربَ لكم الأمثال من الحوادث وآتي بالشواهد من الوقائع لكل هاتيك الجنايات والجرائم الإنكليزية لكلفتُ القلمَ شططاً، ولكن أدعوكم إلى واحدة: وأن تفكّروا مليّاً:

ما هي حجةُ الإنكليز على الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية إذ أشهَرُوا عليها الحرب الحاضرةَ؟ ولماذا انصبّوا إليها بكل قواهم كأنَّها هي الغرض الأوحد لهم من بين الدول المتحاربة، ونشطوا لمبارزتها أكثر من غيرهم نشاط الحانق الحاقد أمكنته الفرصة فأظهر ما كان يضمر وسارع إلى انتهازها قبل الفوت؟ ثم لماذا اتخذوا هدفهم الوحيد ما كان من المسلمين بمثابة القلب والدماغ من مراكز الحياة: دار الخلافة، وقطر الحجاز؟ وبعد هذا وذاك لا

---

(١) النظرُ: الفكرُ في الواقع بقصد المطلوب إدراكهُ معرفةً وإنجاز العمل به. والفكرُ: هو ترتيبُ أمورٍ معلومة يُتَوَصَّلُ بها إلى معرفة، بطريقة ما يجولُ في الذهن وله واقع. فلا بدَّ له من تحسُّسِ الواقع وتقصُّدِ المعلومات السابقة تحسسَ معايشةٍ مع الجولان الذهنيِّ للواقع والمعلومات حتى يحصل بها تَمامُ الإدراكِ.

تنسوا سياسة الخدعة من بريطانيا والطلاء أثناء ارتكابها هاتيك الأعمـــال. لا تنسوا ذلك كما أنَّها ما نسيته ولا تغفلوا عنه كما أنَّها لم تغفل.

وأظُنُّ أن في الكلمات الآتية شاهد عدل ومثال صدق لكل ما أســـلفناه، وأن هناك ما يؤيد الحق ويجلو الحقيقة إذا أُعِيْرَ طرفَ ناقدٍ بصيرٍ.

هَلْ تَكْذِبُ الْمُلُوكُ؟[1]

سُؤَالٌ أَطْرَحُهُ على بساط البحث ليحاكمه كلُّ مُنْصِفٍ وليعتبر به كـــلُّ مسلم على دينه غيور.

تعساً للسياسة ونكساً، لا ذمة لها ولا ذمار، فإليك اللهم المشتكى مـــن عدو في ثوب صديق ومن سُذَّجٍ يغترون بالظواهر وتخفـــى علـــيهم بـــواطن الأمور.

لا أثرَ بعد عين وقد كشف الغطاء ووضح الصبح لذي عينين فاســـتنيري أَيَّتُهَا الأفكار، ثم خففي من نسجك يا عناكب الأوهام.

شَرُّ جيرانك مَنْ لا تأمن بوائقه، وشرُّ خلاّنك عدوّ في ثوب حميم ينصب لك الحبائل ويتربص بك الدوائر ويتلوَّن معك تلون الحرباء.

---

(١) صورةُ مقال كتبناهُ في جريدة (الرأي العام) في (دمشق الشام) ٢١جمـــادى الأولى سنة ١٣٣٣ إذ أغارَ أسطولٌ الإنكليز على الحجازِ الشريف فأصلى (المويلح) نـــاراً حامية وحاولَ الإنكليز أن يُنْزِلوا جنودَهم هناك لعلَّهم أن يزحفـــوا إلى الحجـــاز الشريف ويتغلغلوا في أحشائه الطاهرة. فردَّهم على أعقابهم أبطـــالُ الْمُجاهـــدين هنالك. وكذلك (لِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيْهِ) وقد كان الإنكليزُ فوَّقُوا هذا الســـهمَ نحـــو القلبِ في (المويلح) بعد ما طاشَ السهمُ الذي فوّقَوه نحو الدماغ في (الدَّرْدَنِيْلِ) إذ تحطمت مُدَرَّعَاتُهُم الضخمة أمام (جناق قلعة). (حبيب).

يُعْطِيْكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلاَوَةً وَيَرُوْغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوْغُ الثَّعْلَبُ

ثم لا يهمه من أمرك إلاّ ما كان فيه خير له، وشرٌّ لك.

كذلك مثلنا معاشر المسلمين ومثل الإنكليز حلفاء المخاتلة وظهراء الباطل، أعداء الإنسانية وخصماء الحق، ثم أعداء بيت الله و قرآنه المجيد.

على رَسْلِكَ أيها البلاط الملوكي في حضيرة لندن.! لقد رفع الستار ونصل الخضاب وحصحص الحق وبدا وجه الحقيقة بارزاً للعيان، فعلم الجاهل وانتبه الغافل وبطلت حجة المتغافل ثم عَلَتْ كلمة الناقد البصير والألمعي المتفكِّر من الذين يمعنون النظر ويمحصون الحقائق ويسبِرون الغور، فيزنون الأعمال ولا تغرهم زخارفُ الأقوال.

على رِسْلِكَ أيها البلاطُ الملوكي في حضيرة لندن.! إن صوتاً دوَّى من شُرُفَاتِكَ العاليات فتجاوبت أصداؤه في بلاد المسلمين ليخدر منهم الأعصاب ويعبث بالألباب تطلية للحقائق وذَرّاً للرماد في العيون أنه قد تلاشى أمامَ قصفِ المدافع وهزيم القنابل على شواطئ (المويلح) من أعمال مدينةِ الرسولِ.

على رِسْلِكَ أيها البلاط؟! أهذه صداقتك للمسلمين؟ أهذه حرمتك لمشاعرهم الدينية؟ أم هذه رعايتك لعواطف هاتيك الملايين الوفيرة من رعاياك المسلمين؟ أولئك الذين بحولهم تثير نيران الحروب وبأموالهم تنشئ الأساطيل الضخمة ومن شبانهم تقرب الضحايا أمام هيكل المطامع ثم بسهمهم تريد أن ترمي قلب دينهم القويم!! أهذه رعايتك لإحساسات أولئك البائسين؟ أم هذا وفاؤك بضمانك للعالم الإسلامي أن لا يُمسَّ قطر الحجاز بسوء ولا تمتد يد الخيانة إلى تلك البقاع المقدسة..؟

على رسلك أيها البلاط! إن الذي يعجز عن مقاومة المخلوق فهو عن مقاومة الخالق أعجز فَقُلْ لأساطيلك التي انْهزمَت في الدردنيل إزاء أبطال

المسلمين شر هزيمة فأتت إلى (المويلح) تأخذ ثأرها من جامع المسلمين، قال لها: إن المعابد بيوت الله وأن التشفي منها غاية الخسة والنذالة. على أن أرض الحجاز المقدسة ومساجدها الطاهرة ملحوظة بإحساس كهربائي من عامة المسلمين يخفق منهم لأدنى حادث فيها ثلاثمائة وخمسون مليون قلب ملأهم إشفاق وحنان وتقديس وتعظيم.. أم بلغ بكم الاستخفاف بالعالم الإسلامي أيها القوم أن لا تعرفوا وجوداً للمسلمين ولا تعترفوا لهم بحاسة من الحياة تُهَيِّجُ لهم عصبية وتُحَرِّكُ منهم عرقاً نابضاً؟ لئن صدقت منكم هذه الظنون فيا خيبة الإسلام بعد اليوم ويا اسفاه على المسلمين.

حَطَّمَ اللهُ أَسَاطِيْلَكَ أَيُّهَا الْبَلاَطُ قُلْ لَهَا: ما كان ذَنْبُ المأذنة في (المويلح) حتى يؤخذ منها ثأر القلاع في الدردنيل فتحطمها القنابل وتأكلها النار؟ أم لم يعلموا أن الحجاز منبثق النور فلا يكون هدف النيران، وأن المآذن معكس صدى قلب المسلم فضربة تنْزل هناك لا تلبث أن تصيب قلب كل مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله؟ أم لا تريدون أن تبالوا أيها القوم بأهل التوحيد من المسلمين مهما نفخت في مناخركم الأهواء؛ لأنَّهم موحِّدون؟ أم هي الخطوة الأولى للسير نحو ما منَّى به نفسه (كتشنر) من جعل مدينة الرسول الأعظم متحفاً عاماً في أقدس بقاع الشرق؟ أم تعلمون أن الحجاز قلب العالَم الإسلامي فتريدون أن تنْزلوا الضربة على قلب المسلمين لتسرُّوا بذلك روح (غلادستون) الخبيثة إذ نادى من فوق منبر الخطابة (لاَ يَسْتَرِيْحُ الْعَالَمُ مَا دَامَ هَذَا الْكِتَابُ مَوْجُوداً) يشير إلى قرآننا المجيد؟

أمْ كلُّ هذه الفظائع شعائر صَدَاقَتِكَ!!! للمسلمين -أيها البلاط الملوكي في حضيرة لندن!- ومعالم وفائك بالضمان لهم أن الحجاز الشريف مصون من كل طارق لا تمس له كرامة ولا تمد إليه يد الأهواء؟ اللهم إننا نبرأ إليك من

صداقة شعارها الفظائع ومن ضمان يجر علينا الويلات.

هذا هو صديقك!! الْمُخْلِصُ!! أيها العالم الإسلامي فاستيقظ من رقادك مهما كنت في سبات عميق.. هذا هو مخادعك الذي يحاول أن يقتلك بسهمك أيها العالم الإسلاميّ فمزّق ستار الوهم وانتبه من رقاد الغفلة ثم انفض غبار الخمول وابعث روح النشاط في عروق عصبيتك مهما ملأت كسلاً وجموداً.

ثِقْ أَيُّهَا الْبَلاَطُ! أن الأسطول الذي مَخَرَ في البحر الأحمر يريد سواحل الحجاز ليستحيلنَّ دخانه المتكاثف في الهواء شرراً متصاعداً من قلب كل مسلمٍ على دينه غيور. ثِقْ أيها البلاطُ! أن المدافعَ التي حطمت بقذائفها مئذنةَ التوحيد في القرب من منبثقِ أنواره ليوقظنَّ دويُّها كلَّ مسلمٍ طال سُباته في مضاجعِ الخِدَاعِ وَخَدَّرَتْ أَعْصَابَهُ الأَكَاذِيْبُ وغَشَتْ على أبصارهِ سياسةُ الطِّلاءِ فقد فُضِحَ ليلُ الشكِّ ووَضُحَ صبحُ اليقينِ.

وَأَقْرَبُ شَيْءٍ يَضْمَحِلُّ وُجُودُهُ   تَصَنُّعِ كَذَّابٍ وَصَوْلَةِ مُبْطِلِ

لقد تلخَّص من كل ما ذكرناه أولاً وآخراً، إجمالاً وتفصيلاً أن هناك ظالماً ومظلوماً. فأما الظالم فدولة بريطانيا الجانية، وأما المظلوم فأولئك البائسون الذين تحت أثقال ظُلمها يرزَحون. ولكن بقي علينا شيءٌ آخر أن نُعَمِّقَ النَّظَرَ في مغازي المسألةِ ومغامزها ونقيسَ حال فريق بآخر ثم ننظر:

أَيُّهُمَا الْمَعْذُور؟[1]

لِعِلْمِيَ بِالإِنْسَانِ أَعْذِرُ جَائِراً   وَلَسْتُ أَرَى عُذْراً لِمَنْ يَحْمِلُ الْجَوْرَا

(١) صورة مقال عقبنا به المقال السابق في جريدة (الرأي العام) ٢٣ جمادى الأولى ١٣٣٣. (حبيب).

مَن اكتفى من الأمور بظواهرها فقد خدعَ نفسه، والحازم الألمعي من يسبر الغور ويبعث بشعاع النظر نافذاً إلى الأعماق. كثيرٌ من المسائل الاجتماعية يذهب ضحيَّة البساطة فيعود على ذَوِيهِ بالخسران، ولو امعنوا فيه النظر لاهتدوا إلى مكامن الداء.

خيرُ مظاهر الحياة العدلُ، وشرُّها الظلمُ، هما رأس كل سعادة وشقاء، والبقية فروع ترجع إلى هذين الأصلين، فعلى محورهما تدور الأعمال وإلى مبدئهما تنتهي تكيفات الحياة.

ليست الحياةُ غيرَ حقوق طبيعية وتكاليفَ وضعية -وشرطٌ للثانية أن لا تخالف نواميس الأولى- فما جاء منطبقاً على تلك الروح كان عدلاً، وما تجاوز حدودها نسمّيه ظلماً.

فالعدلُ والظلمُ مُتَسَرِّبَانِ في أعمال البشر كافة يسيران معه سيرَ دمه في العروق شَعَر بذلك أم لم يشعر، حتى أنه لو تخلّى ونفسه لما خلى عنهما؛ فإن لنفسه عليه حقاً؛ إن أَدَّاهُ عَدَلَ وإلاّ كان لها ظالماً. ومَنْ قلَّبَ في الأنام طرف الناقد البصير رأى أكثر الناس من هذا القبيل وما ظلمناهم ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

خُلِقَ الإنسانُ من أمشاج جعله مجمع الأضداد، ومن كان كذلك فحري أن لا يكون مستقيماً ثم جدير أن لا يفقد مقوّماً.

وإلى هذا الإشارة في قول الشاعر الحكيم:

وَالْظُّلْمُ مِنْ شِيَمْ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

أَجَلْ: الظلمُ للإنسانِ كالإحراق للنار، فمن لام ظالماً على ظلمه فقد كلَّف الطبيعة ضدَّ مفعولها. إن خيراً من عَذْلِ[1] الظالمِ التماس العلَّة التي تكفه

(١) الْعَذْلُ: الْمَلاَمَةُ.

عن الظلم. وهذه وظيفة المظلوم، فإن قعد عنها فقد قصر بواجبه ثم ظَلَم نفسه. وأيُّ عذر لمن قعد عن القيام بالواجب؟

هذا رأي اجتماعي في أهمِّ قضية اجتماعية تتكررُ على الإنسان ما كرَّ عليه الجديدان، وهو المراد من البيت في صدر المقال:

لِعِلْمِيَ بِالإِنْسَانِ أَعْذِرُ جَائِراً وَلَسْتُ أَرَى عُذْراً لِمَنْ يَحْمِلُ الْجَوْرَا

إن هذا الرأيُ من أكبرِ العواملِ لتهذيبِ البشريةِ والتقويم من أَوْدِها لو تربَّت عليه النفوس فانبعثت روحه في القلوب وانطبعَ مثاله في مرايا الخيال.

إن تجفيفَ منابعِ الدموعِ خيرٌ من تَسَاكُبِهَا يأساً وألماً، وأن تحطيم بواعث الشكوى خير من بَثِّهَا لهذا وذاك خوراً وضعفاً مما يحط بقدر الرجل ولا يجديه نفعاً، فمتى علم المظلوم ذلك وعرف نفسه غير معذور في حمل الظلم ثم امتزجت هذه الفكرة بدمه ولحمه منذُ نعومةِ أظفاره فإنه لا يلبث إذا ما لحق به حيف أن يجدَ في نفسه باعثاً قوياً للاستماتة في سبيل دفع ما لحق به. ومتى تم هذا تخضدت شوكة الظلم طبعاً واضطر الظالم أن يكبح من جماحه ويخفف من غلوائه.

فقد ظهرَ لكَ من كلِّ ما مرَّ بك أيها القارئ المفكر أن الأساس في وجود الظلم هو تحمل المظلومين أكثر من وقاحة الظالمين.

أما وَاللهِ لو عَلِمَ الظالم أن بين جوانح المظلوم عاطفة تدفعه إلى الاستماتة دون هضم حقه لتحاماه، ولو علم المظلوم أنه بالاستماتة دون حقه أجدر من الظالم بالجرأة على ارتكاب جريمة الظلم وأن لا حياة إلاّ للمستميت لتملص من احبولة ظالمه، فلا أغضى على القذى ولا نام بين أنياب الضيم ومخالب الهوان.

ألاَ فَلْيَنْتَبِهْ لهذا السِّرِّ الاجتماعيِّ كلُّ مسلمٍ عَضَّهُ الظلمُ بِنَابِهِ فأثقلت

كاهله سلاسل الأسر من أعداء دينه، لا سيما الذين هـم في ربـاق جـور الإنكليز يحزّون أعصابهم بشفار الأعمال ويخدرونَها بمورفين الأقوال لئلا يعلو صراخهم الماً وتوجعاً.

ألاَ لِيعلمنَّ أولئك المسلمون أنِّي لم أُرِدْ في السؤال الذي طرحتـه علـى بساط البحث في المقال السابق أن أوجه سهام اللوم نحو الإنكليز على ظلمهم للمسلمين أو أن أُفَوِّقَ نِبَالَ العُتَبَى نحو البلاط الملوكي لمخاتلتـه وخداعـه ثم تطليته الحقائق بالأقوال الخلاَّبة والأكاذيب الفارغة.

كلاَّ! لأن ذلك مخالفٌ لرأيي في العلائق بين الظالم ومظلوميـه. إني مـن الذين يبغضونَ الظالم ولا يعذِلونه ثم يتألَّمون للمظلوم ولا يعذرونه.. بَيْـدَ أن الكذبَ لا يعذر عليه صاحبه فكشفتُ الغطاء عن جلية القوم عسى أن استفزَّ عُروقاً خدَّروها أو أستلفتَ أنظاراً ذرُّوا في محاجرها الرماد.

ألا لِيعلمنَّ المسلمون أنَّهم مخدوعونَ، ولكن انْجَلَتْ سحائب الشك وقد آن لهم أن يكونوا مستبصرين.. ألا ليعلمن أولئك المسلمون أنَّهم مظلومـون، ولكنهم على حمل الظلم وقبول وصمته غير معذورين... ثم ليعلموا أنَّ مَـنْ ظلمَ نفسَه فلا جَرَمَ أنْ يظلمهُ غيرهُ وأنَّهم بحمل الظلم لأنفسهم ظالمون.

مَهْلاً أيها المسلمونَ مَهْلاً..! أيُّهما المعذورُ: مَنْ يتحكم في الرقاب يتيـه عليها عزةً وفخاراً، أم مَنْ يرضى بالخنوع والاستكانة ثم يلـوي عنقـه ذلاً وصغاراً؟ أيُّهما المعذورُ: مَنْ يسعد بشقاء غيره، أم من يرضى بالشقاء ليسعد غيره؟ ايهما المعذور: مَنْ يعيشُ حراً تخدمه أسراء قهره وسلطانه أم من يرضى أن يعيش أسيراً ثم يكون أُلْعُوبَةَ الأهواءِ بيد آسره.؟

كذلك مَثَلُ الإنكليزِ ومثلُ من تحت يدهم من المسلمين فأيُّهما المعذورُ.؟

عَرَفْتُمُ الدَّاءَ، أَلَا تَلْتَمِسُونَ الدَّوَاءَ؟

الحياةُ ثِنْتَانِ: جثمانيةٌ وروحانيةٌ. وكلاهما معرَّضٌ للاعتلال فكما يوجد أعراضٌ جثمانية يوجد أمراض روحانية. ألا وإن تمام الحياة في السلامة من كلتيهما. ومثال الأولى معروف. وأما الثانية فإن للإنسان حقوقاً طبيعية ووضعية -كما سبق بيانه- فالسلامة في سلامتها، والاعتلال في اعتلالها إذا ما هضمت هضماً وداسها ظالم تحت الأقدام. ألا وإن أكبر تلك الأمراض الروحية فقدُ النَّفْسِ حريتها. والأمة استقلالها، يعيشان في أسر من لم تجمعهما وإياه إحدى (الجوامع الثلاث) الوطنية أو الدينية أو الجنسية. ذلك بأن رأس الحقوق (الاستقلال) الذي تموت بموته كل الحقوق لاندماجها فيه وتضمّنه إياها — كما مرَّ تفصيله- ومنها بل في مقدمتها الحرية الصحيحة التي تحفظ للإنسان شرفه ومجده ولا يلذ من دونِها عيش. وقد عرفتم يا قوم! أنكم مصابون بذاك الداء أفلا تلتمسون الدواء؟ ارأيتم لو أن أحدكم أصابته علَّة في جسده أَيَدَعُها دون أن يلتمس لها دواءً؟ وها أنكم مصابون في أوطانكم، مصابون في أديانكم، مصابون في استقلالكم، مصابون في حريتكم، مصابون في مجدكم، مصابون في شرفكم، مصابون في كل حقٍّ لكم وضعياً كان أو طبيعياً، وكلهن علل وأمراض روحانية فكيف أنتم على مَضَضِها صابرون؟

ألا وأن الروحانيات مقدّمة على الجثمانيات، أفلا تلتمسون لها الدواء؟ ثم قد زدناكم علماً بأنكم على صبركم هذا غير معذورين؟ فمتى تبلغون من لدن أنفسكم عذراً ثم لا تكونون لها ظالمين؟

مَا هُوَ الدَّوَاءُ؟
كَيْفَ وَمَتَى.. تَتَحَرَّرُ الرِّقَابُ
مِنْ أَسْرِ الإِنْكلِيزِ

يَا أُسَارَى الْهَوَانِ قَوْمَاً فَقَوْمــاً قَدْ عَــرَفْتُمْ جَــرَائِمَ الإِنْكلِيْــزِ

فَمَتَى تُحَطِّمُوْنَ لِلْــذُّلِّ قَيْــداً مُسْــتَعِيْنِيْنَ بِــالْقَوِيِّ الْعَزِيْــزِ؟

أنتم -معاشر المستعبدين بالاستعباد البريطاني!- فريقان: مسلمون، وغير مسلمين، وكلاكما مصاب بعلَّةٍ واحدة، كلاكما مظلوم، وظالمكم واحد. ثم أمامكم الدواء الناجع إذا التمستموه، وطريــق تحطــيم القيــد واضــح إذا سلكتموه.

أما أنتم – معشر المسلمين.. أتباع مُحَمَّد وأشياع القرآن– فإن لكم سبباً ممدوداً من السماء، ذاك حبل الله لا انفصام لعراه. فإذا مــا اعتصــمتم بــه عصمكم الله. وإن كنتم في ريب مما أقول فأمعنوا النظر ودقِّقوا، ثم اتلوا قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[1].. ألا وإن الله لم يأمركم بهذا ثم ترك الأمر هملاً. بل قد جعل لهذا الحبل المتين ممثلاً، اســتخلفه علينــا معاشر المسلمين، وجعله فينا خلفاً من رسوله خاتم النبيين، ثم أوجب له علينا السمع والطاعة، ومقت الذي يشذّ عن الجماعة، فقال عزّت كلمته ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِــي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْــرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾[2]، وقالَ جلَّت حكمته: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَــا

(١) آل عمران / ١٠٣. (٢) النساء / ٥٩.

تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[١] وفي الحديث الشريف: [فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَمَاتَ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً][٢] أي مات وكأنه لم يدرك زمن النبوّة فلا آمن بمحمد ولا بما أنزل عليه... ألا وإن معقل الرجاء وكهف الالتجاء في ذلك (مَقَامُ الْخِلاَفَةِ الْمُقَدَّسَةِ الإسْلاَمِيَّةِ) ألا وإنَّها متمثلة في (الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ)[٣] ومَنْ أراد الوقوف على التفاصيل من كل وجه فعليه برسالتنا (حَبْلُ الاعْتِصَامِ وَوُجُوبُ الْخِلاَفَةِ فِي دِيْنِ الإسْلاَمِ) فقد حوت من المباحث الدينية والسياسية ما يضمن للعالم الإسلامي طيب الحياة إذا سلك سبيل هداه.

إن دواءكم –أيها المسلمون– آيتان كريمتان من (سورة آل عمران) تجدونَهما متعاقبتين في كتاب الله، ومنهما يتولد المطلوب، كالمقدمتين من الشكل المنطقي تلزم منهما النتيجة. فأما الآية الأولى فقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[٤]، وأما الثانية فقوله عزّت أسماؤه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥]

فدواؤكم الوحيد –أيها المسلمون!–:

١– أَنْ تَعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الْخِلاَفَةِ الْعُظْمَى.

---

(١) النساء / ١١٥.

(٢) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين: الحديث (٥٥ و١٨٤٩/٥٦). والبخاري بلفظ مختصر في الصحيح: كتاب الفتن: الحديث (٧٠٥٣)، والحديث (٧٠٥٤) بلفظ: [مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيْرِهِ شَيْئاً].

(٣) أي في زمان تصنيف هذا الكتاب.

(٤) آل عمران / ١٠٣.

(٥) آل عمران / ١٠٤.

٢- أَنْ تُؤَلِّفُواْ مِنْكُمْ لِتِلْكَ الْغَايَةِ الْمُقَدَّسَةِ جَمْعِيَّةً كُبْرَى اقْتِدَاءً بِتِيْنِكَ الآيَتَيْنِ الْكَرِيْمَتَيْنِ وَاهْتِدَاءً.

أَلَسْتُمْ تعلمونَ أنَّ لا حق من غير قوة، ولا قوة من غير اتحاد؟ فما لكم لا تتحدون؟ ألستم تعلمون أن (الْجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةَ عَذَابٌ)[١] فما لكم لا تجتمعون؟ ألا وإنه لا اتحاد من غير رابطة، ولا اجتماع من غير جامعة. فاجعلوا رابطتكم حبل الله تعتصمون به اعتصاماً وتتحدون على اسمه اتحاداً، وألّفوا (جَمْعِيَّةً) ذات أصول وفروع في جميع الأقطار الإسلامية الإنكليزية، تُنَظِّمُكُمْ نَظْمَ الْخَرَزِ فِي السِّلْكِ، فتلمُّ منكم شَعَثاً وتجمعُ شملاً. واجعلوا شعارها (الْمَوْتُ، أو الاسْتِقْلاَلُ) ثم رَبُّوا ناشئتكم على هذا المبدأ تُرضعونَهم إياه مع اللبان، وتنفثونه في أرواحهم نفثاً منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار.

ولتكن تلك الجمعية أشبهَ بسلسلة كهربائية **تَتَحَرَّكُ بِحَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ** وتسكنُ بسكون واحد مهما كانت كثيرة الشُّعَب مترامية الأطراف، فلا تقرِّر أمراً أية شعبةكانت إلاّ وتُعلم سائر الشعب بقرارها، كيما يتم لكم توحيد الكلمة - يا أهل كلمة التوحيد!- بكل مظاهره.ثم [اسْتَعِيْنُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ

---

(١) عن النعمان بن بشير ﷺ؛ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى هَذه الأَعْوَاد أَوْ عَلَى هَذَا الْمنْبَرِ: [مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيْلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيْرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّحَدُّثُ بنعْمَة الله شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ. والْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ]. قَالَ: فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهليُّ: عَلَيْكُمْ بالسَّوَاد الأَعْظَم ! قَالَ رَجُلٌ: وَمَا السَّوَادُ الأَعْظَمُ؟ فَنَادَى أَبُو أُمَامَةَ هَذه الآيَةَ الَّتي في سُورَة النُّور ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْه مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾. رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٧٨ وص٣٧٥، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب الخلافة: باب لزوم الجماعة وطاعة الأئمة والنهي عن قتالهم: ج ٥ ص٢١٧-٢١٨؛ قال: رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات. إنتهى. إسناده صحيح.

بِالْكِتْمَانِ][1] كما أمر بذلك نبيكم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فإنه قلما يفوز الظُّهَرَةُ الْعُلَنَةُ. وعليكم **بِأَشْعَارِ** الحماسة وأناشيدها، فإنَّها تثير العواطف وتحرِّكُ الأعصاب. **وَتَوَغَّلُواْ** في التاريخ، فإن فيه ذكرى. **وَتَعَمَّقُوا** منه في عنعنات الْمَجْدِ، فإن هناك انتباه الأفكار. **وَادْرُسُوا** أخبار كبار النفوس من عظماء الأمم وأبطال التاريخ، فإنَّها تبعث على عُلوِّ الهمَّة. وضعوا في **أَيْمَانِكُمُ** الحزمَ، وفي شمائلكم الصبر، فإنَّهما للنجاح ركناهُ، والله مع الصابرين. ثم **وَطِّدُوا النُّفُوسَ** على اقتحام كل عقبة، فما أوسع دائرة الإمكان. **وَارْتَخِصُواْ** كل غالٍ واحتقروا كل عظيم في جنب الغاية التي تسعون من ورائها، فإنَّها أعظم وأغلى، وعليكم **بِالْمُفَادَاةِ** فلا يتم أمر من دونها في الكون، وعلى دعائمها تقوم صروح الآمال، ألا وإن في مقدمتها بذل الأموال. **وَلاَ تُحَقِّرُوا عَمَلَ عَامِلٍ**، فلولا البسائطُ لما عرف للمركَّبات وجودٌ، ثم سُنَّة الله في خلقه أن يبدأ الشيء صغيراً، ثم لا يزال ينمو حتى يكون كبيراً. ألا وإن **مَبْدَأَ النَّجَاحِ تَبَادُلُ الثِّقَةِ وَالاعْتِمَادُ عَلَى النَّفْسِ**، فاستمسكوا بأهدابهما بعد الاتكال على الله والاعتصام بحبله المتين.

ألا أُعرِّفُ بعضَكم ببعض يا أُسَارَى الهوان من أبناء القُرْآن! لعلكم تؤدون حقَّ الأخاء؟ألستم إخواناً بنص القرآن؟:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[2]فكيف يحلُّ لأخٍ أن لا يعرف أخاه؟ أم تجهلون أن [الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوْصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضَاً][3] كما في حديث نبيِّكم الكريم ﷺ فإذا لم تتعارفوا كيف

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص٧٩-٨٠: الحديث(١٨٣) وفي الصغير: الحديث (١١٨٦). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج٨ ص١٩٥، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار. قال العجلي: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات. إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ. انتهى.

(٢) الحجرات / ١٠.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب المظالم: باب نصرة المظلوم: الحديث (٢٤٤٦).

≺≺

يعضد بعضكم بعضاً؟ وها إني اقدِّم بعضكم لبعض باسم الإخاء الديني كيمـــا يصافح بعضكم بعضاً على بركة الله ثم تكونوا يداً واحدةً على عدوكم وعدو الله، يد الله فوق أيديكم والله يخزي الكافرين. تصافحوا اليوم بالأرواح، وغداً تتلاقى الأشباح. ألاَ وإنَّ [الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّـــدَةٌ][1] كمـــا في الحـــديث الشريف، فتعارفوا أيها الجنودُ وغداً لكم يومٌ مشهود.

أُسَرَاءُ الْجَوْرِ الإِنْكلِيْزِيِّ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي آسْيَا

٦٦,٦٢٣,٤١٣	امبراطورية الهند[2]
٥٧,٠٠٧	عدن وتوابعها
٨٧,٩٧٢	جزائر البحرين
٥٦,٤٢٨	جزيرة قبرص
٦٦,٨٢٤,٨١٩	
٢٣٥,٣٦١	جزيرة سيلان
٢١٢,٣٠٦	بورنيو
٤٢٣,٦٣١	سرواك
٧٣٧,٦٧٩	بلوجستان

ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم: الحديث (٦٥/٢٥٨٥).

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأنبياء: باب الأرواح جنود مجنـــدة: الحـــديث (٣٣٣٦). رواه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب الأرواح جنود مجندة: الحديث (١٥٩ و١٦٠/٢٦٣٨)

(٢) هذا الإحصاء قبل سنة (١٩٠٠) للميلاد، أما اليوم فيزيدون على (٧٥) مليونـــاً. (حبيب).

وفق هذا المقياس الذي قيَّده الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: يكون مسلموا اليوم أُسَارَى جميعاً، إلا من فرَّ بدينه، والتحقَ بسيرة أَبِي بصَيرٍ وبِمثاله صنعَ، أو أنه يستعينُ بالله عاملاً في مجال رأسِ الأمر وهو الإسلام، متأسياً بسيرة الرسول ﷺ في مكَّة.

٩,١٨٢	جزر لاكاديف
١٩٦,٥٠٠	سنغافورا وملحقاها
٣٢٤,٦٥٠	الولايات الماليوية
٦٨,٩٦٤,١٢٨	

أُسَرَاءُ الْجَوْرِ الإنْكِلِيْزِيِّ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي أَفْرِيْقِيَا

٢٢,٦٢٣	مستعمرة الكاب وملحقاتِها: ترنسفال، اورنج، ناتال
٣٠,٠٠٠	جزيرة موريق
١٨١,١٣٠	زنجبار الشمالية وبمبا
٢٨٧,٠٠٠	ساحل الصومال
٥,٠٠٠	سيراليونه
٦,٠٠٠,٠٠٠	نيجريا الشمالية والجنوبية
٥٧,٤٠٠	أشانتي
١٠,٢١٩,٤٤٥	القطر المصري
٢,١٤٠,٣٠٠	السودان المصري
١٨,٩٤٢,٨٩٨	

أُسَرَاءُ الْجَوْرِ الإنْكِلِيْزِيِّ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي أُوْقِيَانْيَا: أُوْستُرَالْيَا[1]

١٠,٧٤٠

فيا عشرات الملايين من إخوان الدِّين! ماذا عليكم لو تراسلتم فتساءلتم وتواعدتم فتوافدتم، ثم تعارفتم فتآلفتم، وتعاضدتم فتكاتفتم حتى إذا جاء الوقت الموعود واليوم المشهود نَهضتم نَهضةَ رجل واحد وملأتم الفضاء جَلَبَةً وضوضاء من فم واحد في آن واحد: (الموت أو الاستقلال..!)

وليكن لجمعيتكم مركزان كبيران: آسيوي وأفريقي، ثم شُعب كل منهما

(١) كذلك ليس هذا بالإحصاء الأخير. على أن (تحرير النفوس) لم يكمل بعد هنـاك. (حبيب).

تخابر مركزَها التي هي مرتبطة به وهما يكونان واسطة الارتباط العام والإعلام والإفهام. ثم تجتمع نخبةٌ من نوابغهما في كلّ عام أمام الروضة المطهرة النبوية وفي بيت الله الحرام. فيتذاكرون فيما كان ويتدابرون فيما يكون، ثم يجدِّدون العهود، ويضرِّبون الوعود، ويحلفون على ذلك الأيمان، أمامَ الله في بيته العظيم، وفي الروضة بمحضرٍ من نَبِيِّه الكريم. ثم يفترقون على ما اجتمعوا عليه متوكِّلين على الله لا يخشَون أحداً سواه. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[١].

واعلموا أن لكم من العالَم الإسلامي خيرَ ظَهيرٍ، فإنه اليوم غيره بالأمس: إن فيه هزَّة انتباه ورعدة منتفض بل نشاط مستيقظ ريَّان، ووثبة متحفِّز يريد أن يناطحَ الثريا في صحنِ السماء. وحسبُكم دليلاً واضحاً علىذلك ما بلغَكم عن دولة الخلافة المقدسة إذ انتهزت الفرصةَ في هذه الحرب العامة فخاضت غمارها مع من خاضوا وقلبت الحربَ السياسية إلى الجهاد الديني فتَرون دَوِيَّ المدافعِ ممتزجاً بأصوات (اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ..!) الا وإن غرضها الوحيد توحيد الكلمة من أهل كلمة التوحيد لتكون كلمة الله هي العليا ثم لتحرر رقاب أمثالكم من جور الظالمين.

قلِّبوا صحائفَ التاريخ منذ عصور لا تجدوا العالَم الإسلامي قد ظهرَ بمثل مظهره اليوم، فلكأنِّي بالفلك وقد دارَ دورته الأولى وإذا الأمة الإسلامية قد بُعثت من مرقدها وإذا بتاج مجدها القديم مرصَّع بالدرِّ العظيم، فانتهزوا الفرصةَ كما انتهزَتْها دولةُ خلافتكم المقدسة، ثم اذكروا أن الفرصَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ.

ثم إن لكم إخواناً في الوطنية أُوْلِي بأسٍ شديد وعدد كبير ومال كثير،

---

(١) الطلاق / ٣.

وهم يشكون الذي تشكون ويئنون كما تئنون، كلاكما بقيد واحد موثــق وبسكين واحدة مذبوح. فابسطوا إليهم اليد وفاقاً واجعلوا بيــنكم وبينــهم عهداً وميثاقاً (إما الموت، وإما الاستقلال) حتى تطهروا أوطانكم من جراثيم عدوكم جميعاً وتستعيدا منه كل حق لكما مهضوم.

يومئذ تتحرر رقابكم من أسرِ الإنكليز، وما ذلك على الله بعزيز.

وأما أنتم – **مَعَاشِرَ الْعَنَاصِرِ غَيْرِ الْمُسْلِمَةِ** من برهمي ووثني وبوذي وطبيعي وسكهسي وغير ذلك!–فإنكم وإن فرَّقت بينكم المذاهب والأديان فقد جمعت بينكم المنافع والمصالح، والدين شيءوالدنيا شيء آخر، والضمائر غير الظواهر، وتعدد المعابد لا ينافي وحدة السياسة، فلتلك ساعة ولهذه أخرى. وقد مرَّ بكم من (كشف الستار وجلاء الأبصار) ما لم يبق معه عذر لمعتذر. لقد لمســتم الحقيقة باليد، وعرفتم مكامن الداء، و لم يبق عليكم إلاّ أن تلتمسوا الدواء؛ أما وإنه لبين أيديكم قريب المأخذ سهل التناول، فكيف ترضــون بــالموت وفي يدكم أسباب الحياة؟[1]

إن دواءَكُم إثنان سجَّلتهما أقلامُ الأرض وقدّستهما أخبار السماء:

١– عَقْدُ الْوِفَاقِ وَنَبْذُ الشِّقَاقِ.

٢– تَأْلِيْفُ الْجَمْعِيَّاتِ وَالصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ.

إن اكبرَ دساتير الأمم المستعبدة لغيرها أن لا تفتر عن إلقاء بذور الشقاق بين العناصر التي تستعبدها لئَلاَّ يكونوا عليها يداً واحدة فيحطمــوا القيــود

(١) لقد أدرك الْعَدُوُّ قدرة المسلمين على قيادة غيرهم من الشعوب والأمم حيث إنَّ دينَ الإسلام إنساني لا عرقي وهو مرسل للثَّقَلَين من الجــنِّ والإنــس لا للإنســانية فحسب، فعملوا على زرعِ الشقاق وتَهويل الحقدِ ضدَّ المسلمين كما هو ظاهرٌ في بلاد الهندِ وما يصنعهُ عملاء بريطانيا وأمريكا من قيادات هذه الطوائفِ لتكــريس روحِ العداوة بين أتباعِهم والمسلمين. فلاحظ.

ويحرِّروا الرقاب. وما أَزْمَنَ فيكم الداءُ إلاَّ بسير بريطانيا من سياستها إيــاكم على هذا النهج الخبيث. ففي اليوم الذي يرتبط بعضــكم بــبعض ارتباطــاً وتتحدون اتحاداً، تُحكمون عرى الوفاق وتنبذون وراءكم الشقاق، يومئــذ تكونون قد قتلتم من جراثيم المرض ثلثيها بناموس طبيعي، والثلــثُ الآخــر تقتلونه (بعملية) واحدة: تأليف الجمعيات والصبر والثبات.

لِتُؤَلِّفْ كلُّ أمةٍ منكم جمعية خاصة وَلْتَرْعَ في تأليفها ما يختص بها مــن التقاليد والعادات، ولا بأس أن تكون مخالفة لغيرها من جمعيات بقية الأمم في الفروع بحكم اختلاف الأطوار والتقاليد، ولكن الأصول واحــدة والغايــة واحدة: (الموتُ، أو الاستقلالُ).

وليكن بين (الْمَرَاكِزِ الْعَامَّةِ) من جمعيات كل الأمم ارتباط خاص تمثلــه (لَجْنَةٌ عُلْيَا) منتخبة من نوابغ المراكز العامة كلّها، لا يبحثون عن شيء مــن الفروع قط، وإنما تدور رحى أعمالهم على قطب واحد: هو توحيد المساعي ، والنظر في شأن الأسباب الموصلة إلى الغاية المطلوبة والهدف الوحيــد، أعــني (الموتُ أو الاستقلالُ).

وبعبارة أخرى: تدورُ رَحَى أعمالكم جميعاً على مبدأ واحد: (عِشْ سَعيداً أو مُت كريماً) وهي الكلمة التي دعوتكم إليها في صدر الكتاب. تنقشــونَها على صفحات القلوب وتخطُّونَها على صحائف الأذهان.

والأوضحُ من هذا وذاك أن تجعلوا الغاية من كل عمل تعملونــه أمــلاً واحداً (الْمَوْتُ أَوْ تَحْرِيْرُ الرِّقَابِ مِنْ أَسْرِ الإِنْكلِيْزِ) .

إِخْطَار

وإياكم أنْ تَفْتَكِرُواْ قبل الحصول على الاستقلال فيما عسى أن يكــون

بعدهُ، فَتُثَبِّتُواْ النقش قبل العرشِ. ثم لا تلبثونَ أنْ لا تجدوا لا عرشاً ولا نقشاً. فإن ما كانَ سابقاً لأوَانِهِ تكون نتيجته الحرمان لا سيما والعقدة التي تعقــدها يدُ الشرقي تكون أقرب إلى الانحلال.

فإذا ما أراد إحكامها فعليه أن يجتنب كل ما من شأنه أن يضع أمامهـــا العراقيل. ألا وإن التفكر فيما بعد الاستقلال قبل الحصول عليه من أصــعبِ العقبات التي تحول بينكم وبينه، فتخيب الأماني وتطيش الســـهام. ولكـــأنّي بالإنكليز إذا ما شعروا منكم بعمل ما، لا يلبثون أن يأتوكم من هذا البـــاب فيشوِّشوا عليكم طريق السلوك[1]. وهكذا يحلُّون العقدة قبل أن تعقـــدوها. فاحذروا أن يفتنكم الشيطان ثم لا تفلحوا بعدها ابداً. إن وطن الأمة دارهـــا التي تأوي إليها أفرادها كأنَّهم أبناءُ أسرةٍ واحدة، فاطردوا الغريب من داركم قبل كل شيء، ثم أنتم إخوان يسع بعضكم بعضاً إذا اقتسمتم في الميراث. إن واجبكم الأول أن لا تدعوا تراث الآباء طعمة للأعداء وأنتم –معاشر الأبناء– منه محرومون.

وبعد، فاعلموا أن العالَم الإسلامي لكم ظهيرٌ نصير، وذلك لأمور:

الأول: أنه قد استيقظ من رقادهِ وعاد إلى فطرته الأولى من كونه (ظهيرَ الحقِّ وحليفَ الحقيقة) والحق معكم والحقيقة لديكم ناصعة الجبين.

الثاني: أنه قد انتبه لمغامز دينه الذي يأمره بخدمة الإنسانية عطفاً وحناناً، ثم ها أنه يسمع أنينَها تألُّماً لكم وإشفاقاً عليكم ثم أسفاً واكتآباً.

الثالث: أنه شرقي وأنت شرقيون، والفطرة قد فرَّقت بين الشـــرق والغـــرب – منذُ وُجِدا– كأنَّهما كفَّتا ميزان، فهو يريد أن تكون كفَّتكم هـــي

(١) وقد فعلوا.

الراجحةُ بحكم الفطرة وإيجاب الطبيعة.

الرابع: أن المصلحة تقضي عليه بذلك فإن الإنكليز عدوّه اللدود، وفي ذلك إضعاف لقوته وتخضيد لشوكته، وضعف العدو يعد قوَّة لعدوِّه وموته يعدُّ حياة له. ألا وإن العالم الإسلامي قد شعر بوجوب التماس الحياة من بين ثنايا القوة والتماس القوة من بين ثنايا الحياة.

بَلْ أَقُولُ: يَجِبُ عَلَى كُلِّ شَرْقِيٍّ أَنْ يَكُونَ نَصِيْراً لَكُمْ وَظَهِيْراً، فَقَدْ آنَ لِلشَّرْقِ أَنْ يُحَرِّرَ رَقَبَتَهُ مِنَ اسْتِعْبَادِ الْغَرْبِ، وَقَدْ آنَ لأَبْنَائِهِ أَنْ يَضْرِبُوا عَلَى وَتَرِ الصِّبْغَةِ الشَّرْقِيَّةِ حَتَّى يَظْفَرُوا بِتِلْكَ الأُمْنِيَةِ.

تَبِعَةُ الشَّرْقِ عَلَى اثْنَيْنِ
أَبْنَاءِ النِّيْلِ، وَأَحْفَادِ الشَّجَرِ الْمُقَدَّسِ

إن الشرقَ لا يتحررُ ما دام الاستعباد البريطاني ضارباً أطنابه على قمم (هملايا) في آسيا وفوق ذرى الأهرام في أفريقيا. والتبعة في ذلك على أحفاد الشجر المقدس في الهند وأبناء النيل في مصر.

فَمَهْلاً مَهْلاً يَا بَرْهَمِي... وَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى مِنْكَ يَا ابْنَ النِّيْلِ.!

أما أنتم –معاشر البراهمة– فإنكم تُعَدُّونَ (٢١٩,٣٥٣,١٦١) نسمة. ثم أنتم أبناء وطن واحد، ودين واحد، وعنصر واحد، فماذا تبغون فوق هذا من بواعث القوة ووسائل العزِّ ومراقي الفلاح؟ بَيْدَ أنكم ضعفاء غير أقوياء، أذلاء غير أعزَّاء، خاسرون لا مفلحون، فلماذا؟ تالله إنَّها لتبِعَة أنفسكم على أنفسكم وإنكم لها لظالمون. هبُّوا إنكم أسقطتم حقَّ أنفسكم بأنفسكم ورضيتم لها هذا الحضيضَ فما عذرُكم إلى إخوانكم من أبناء الشرق، ثم إلى

الشرق نفسه؟ فإن من حقِّهما عليكم أن تكونوا على تحريرِ رقبتــهما مــن العاملين. رفقاً بهذا الشيخ الكبير وأبنائه البؤساء. إنكم على نُصرتهما قادرون. كيف لا وعدوكم وعدوهما خُمسكم عدداً لو رفعتم يدكم لتسابقت إلــيكم الأيدي منهما تشدُّ أزرَكُم وتنصركم عليه نصراً؟ ولكنه بسلاحكم قــاتلُكم وقاتلُهما معاً، فماذا عذركم إلى أنفسكم. ثم بماذا إليهما تعتذرون؟ إنكم أكبر أمة شرقية حَشَرَها صعيد واحد، وجمعت بينها الجوامع الــثلاث: الوطنيــة والدينية والجنسية، ثم تعد من النفوس ما يزيد على ثلثي سكان أوروبــا وفي استطاعتهم أن يهزّوا جانبي البسيطة لو ارادوا. وهكذا كانت تبعــة الشــرق عليكم يا أحفاد الشجر المقدس! فمتى ترأفون بهذا الشيخ الكــبير تنصــرونه نصراً، فتبلغوا عذراً، ثم تكسبوا أجراً وفخراً؟

أَقَاهِرَةٌ أَمْ مَقْهُورَةٌ

آهٍ مِــنْ قَــاهِرَةٍ مَقْهُــورَةٍ   بِيَدَيْ عَــاهِرَةٍ تَلْقَــى آثَامَــا

وأما أنتم –يا أبناء النيل– ففي استطاعة الناقد البصير أن يقول: أنه لاحقٌ بكم من التبعة ثلثاها. ذلك بأن خزائنَ الرحمة بيدكم مفاتيحها، فبكم المبتــدأ وإليكم المنتهى. أعيروا الخريطة نظرة إمعان تتحققوا ذلك من غير اشتباه. إن السجل الذي تُخَطُّ فيه أقدار الشرق من سعادة أو شقاء هو عندكم محفــوظ وديعةً من الله. عرِّجوا على (ترْعةِ السُّوَيْسِ) لا تروا ضفَّتيها غير دفَّتَــي ذاك السجل الكبير. ما ذلَّلت الشرق دولة بريطانيا وامتلكــت نواصــي (٣٢٢) مليوناً من أبنائه في آسيا ولا استحكمت حلقاتُ استبدادها واســتعبادها في أولئك البؤساء إلاّ بعد ما سجَّلت عليهم الشَّقاء في ضفاف (الترعة) وقبضت على ناصية (الأهرام) في وادي النيل. ما كانت رباق الاستعباد البريطــاني في الهند إلاّ نسيجاً من خيط العنكبوت حتى إذا قُهرت (القاهرة) صارت الرباق

أغلالاً في الأعناق وانقلبت الخيوط إلى قيود من حديد. إن في آسيا الكبرى (٣١٠) ملايين من الهنود يرزحون تحت هاتيك القيود، ثم ليست هي إلاّ من صنع مصر.

إن الترعة لدولة بريطانيا بالإضافة إلى الهند (خط رُجْعاها) الذي لولاه لخسرت تاجَ الامبراطورية هناك[1] ثم طاشت سهامُها وخابت آمالها الذهبية في العراق. وإذا سلكت الطريق الآخر –على بعد الشقَّة وفرط العناء– انتهى بها السير إلى الجلوس تحت المثل السائر: إلى أن يأتي الترياق من العراق يحصل الفراق.

إن العالَم الإسلامي أشبه بدائرة واسعة انقسمت إلى نصفين، نصف في آسيا، ونصف في أفريقيا، وقناة السويس نقطة المركز من تلك الدائرة وعلى

(١) أتاني ذات ليلة بعض رجال الحزب الوطني من إخواننا المصريين في دمشق يصحبُهم صحافي من الهند قد طلب إليهم مثل هذا الاجتماع، فأفضنا في الحديث وتجاذبنا أطراف البحث، وكان المجلس مثال الشكوى ومجتلى عذاب الضمير، وكنت أقلِّب طرفي من أخويَّ الهندي والمصري في (أسير يستغيث إلى أسير) فبعد أخذ وردٍّ وتساؤل وتجواب حتى أخذت قسطاً مما أريد شرعت أحمِّل القوم تبعة أنفسهم وكان مما قلت للهندي: إن لكم عدداً كبيراً فلو لم تملكوا من العُدد إزاء الإنكليز غير البِصَاقِ لأمكنكم أن تُغرِقوهم منه بسيلٍ جارف، فما لكم مكَّنتموهم من أعناقكم يضعون فيها أطواق الاستعباد بعشرين ألف عِلْجٍ من أبناء السكسون وأنتم وبقية أخوان وطنكم من الهنود يزيد عددكم على (٣١٠) ملايين؟ فاعتذر بأمور منها ما ساءَ ومنها ما سرَّ ثم كانت الخاتمة من معاذيره أن هناك وميض نار خلال الرماد لا يمنع أن يكون له ضرام غير ماء (الترعة) ففي اليوم الذي يقتعدُ المسلمون غاربَ الأهرام ويسيطرون على أقدار الترعة يومئذ ينهض بالهند أبناؤها فيكسرون قيوداً ويحرّرون رقاباً. وقد كان هذا في رمضان سنة ١٣٣٢ قبل دخول دولة الخلافة في الحرب بشهرين ونصف. (حبيب).

قلتُ فانتبه ابن النيل؛ أيها المسلم الغيور.

محورها رحى الأقدار للشرق عامة وللمسلمين خاصة. فما دام هذا المحـــور في قبضة الإنكليز فحظنا من دورانه الشقاء.

اخترِقوا الخطوط الجغرافية وقلِّبوا الأقطار ظهراً لبطن من أعماق (الهنـــد) حتى أكناف (مراكش) تجدوا سلسلة إسلامية مرتبطة الحلقـــات، متماســـكة الأطراف، وواسطة عقدها (قناة السويس) التي تجمع بـــين مســـلمي آســـيا وأفريقيا كالبرزَخِ بينهما. فلولا أن هذا البرزخ في قبضة الإنكليز لما تبدَّد شملُ المسلمين كما تبدَّدَ وتبعثرت منهم الأشلاءُ نُهبى المطامع وضحايا الأهواء. لولا أن الإنكليز قابضون على ذاك الخناق لأمكن المسلمين اليوم – وهـــم في دور الانتباه وطور التجدد– أن يضمُّوا شملاً ويلمُّوا شَعَثاً ويجمعوا من دائرة كيانِهم بين نصفيها ثم يحطموا للشرق قيوده وينهضوا به إلى مستوى مجـــده القـــديم. ولكن هذه العقبة الكؤد هي التي أصبحت اليوم أكبر حائل بين المسلمين وبين تلك الأماني الذهبية.

من أجلِ ذلك لا جَرَمَ إذا قلنا: إن قيود الاستعباد الغربي تُصْنَعُ في (مصر) ثم منها تُحْمَلُ إلى الأقطار الشرقيَّة عامة والإسلامية خاصة فتغلُّ بِها الأيـــدي وتطوّق بِها الأعناق. ومن هنا كان ثلثا تبعة الشرق على أبناء النيل.

ثم من أجل ذلك كان الهدفُ الأوحد لدولة الخلافة الإسلامية في هـــذه الحرب العامة تحريرُ وادي النيل من يدِ بريطانيا الجانية، لا طمعـــاً في صَـــعيد مصر توسِّعُ به نطاقَ ملكها، بل غَيْرَةً على المسلمين، تعزيزاً للجامعة الإسلامية وخدمة للدين الحنيف. ولهذا خاضت غمارَ الحرب باســـم الـــدِّين ونـــادت (بالجهادِ الأكبر) وصدعت (بالاتحاد الإسلامي) تذيعه علىأفواه المدافع وألسنة الحراب.

فوارحمتاه يا ابناء النيل..! أيَّ تبعة تحملون: أتبعة أنفسكم عليها؟ أم تبعة

إخوان دينكم من المسلمين كافة؟ أم تبعة الدين نفسه؟ أم تبعة الخلافة الإسلامية على ما تعلمون من مكانتها في دينكم الحنيف؟ أم تبعة الشرق أزاء عدوه الغرب؟ تعقّون منه أباً مشفقاً وشيخاً كبيراً؟ أم تبعة أبنائه من إخوانكم الشرقيين عامة وهم أمم لا تحصى في أقطار لا تستقصى؟ وارحمتاه يا أبناء النيل..! أيَّ تبعة تحملون؟

رويداً يا أبناء القاهرة رويداً! يقال (الأَرْضُ تَشْقَى وَتَسْعَدُ) وإنما على يد أبنائها يتم لها السعد أو الشقاء، فرفقاً بصعيد مصر الطيب وبأرضها المباركة! فكِّروا في النيل: أشقيٌّ أم سعيد؟ وأمعنوا النظر في مصر: أقاهرة أم مقهورة؟ فإذا ما انقلب إليكم البصر خاسئاً وهو حسير فأرسلوه تارةً أخرى ثم فكّروا: لماذا؟ أليست الطبيعة بجانبكم، وهي لا تقهر، ثم من فوقكم يد الله، وهو أحكم الحاكمين؟ فلماذا؟ وإلى متى ترضون لمصر أن تكون مقهورة بينما هي قاهرة، ثم تحملوا من وراء قهرها تبعات فوق تبعات؟ عطفاً إلى التاريخ ولو بعض النظرات: أما والله ما كان الذين شادوا الأهرام من قبلكم إلاّ أُمماً أمثالكم، وهم الأسلاف وأنتمُ الأخلاف. ولكن هي الهمم فانظروا ماذا تفعل: إنَّها نَهضت بِهم حتى أتوا بالمعجزات ورقوا إلى ذلك المستوى، ثم قعدت بكم حتى رضيتم بِهذا الحضيض. هم أورثوكم مثل الأهرام، ثم أنتم عجزتم أن تحفظوا مثل هذا التراث. هم أورثوكم مصر وهي قاهرة، ثم أنتم ورثتموها وهي مقهورة ألا إن في ذلك لآيات لأولي الألباب، فهل أنتم معتبرون؟ ويحكم أرسلوا شعاع النظر نافذاً إلى الأعماق ثم أتَّقوا الله واحذروا التاريخ.

إنِّي لَمُطْمَئِنُّ القلبِ إن بين جوانحكم من العواطف الشريفة والإحساسات السامية ما يتقد مثل الجمر اتقاداً. ولكن ما لي لا أرى شرراً لهاتيك النيران! إني لواثق كل الثقة أن ابن مصر يحبُّ مصر، فلماذا رضي لها بالشقاء؟ وأن

ربيب النيل يغار على النيل، فلماذا لم يطهّره من الجراثيم حتى اســتعذبَ في ظله العذاب؟ يرحم الله الورداني.! أليس له أخ هناك، أم قد ولد فذاً؟ آهاً ليوم أسمع همهمة أبناء النيل تمتزج بخرير مائه العذب تريد تطهيره، ثم في ذلك اليوم مرحباً بالموت.

يَا قَوْمِ! ضَعُوا أَيْدِيْكُمْ فِي أَيْدِيْنَا -وَمِنْ فَوْقِهِمَا يَدُ اللهِ- يَنْصُرْكُمُ اللهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ ثُمَّ تَكُونُوا قَوْماً صَالِحِيْنَ.

تَحِيَّةَ وَادِي النِّيْلِ[١]

أَوْ

جَيْشُ الْمُسلِمِيْنَ فِيْ حُدُوْدِ مِصْرَ

أَوْمَضَ البَــرْقُ فَخِلْنَــاهُ ابْتِسَــامَا   فِي فَمِ النِّيْــلِ لِيَهْــدِيْنَا السَّــلاَمَا

وَهَمَــى الْــوَدَقُ فَخِلْنَــا أَدْمُعــاً   لِبَنِيْــهِ مِــنْ سُــرُورٍ تَتَرَامَــى

يَــا سَــمَاءً مُكْفَهِــرّاً جَوُّهَــا   سَوْفَ نَجلوُ عَنْكِ بِالْبِيْضِ الْغَمَامَا

إِنَّ نَجْــمَ السَّــعْدِ فِــي رَايَتِنَــا   وَهِــلاَلاً يَنْجَلِــي بَــدْراً تَمَامَــا

فَــإِذَا مَــا خَفَقَــتْ أَعْلاَمُنَــا   أَذِنَتْ أَنْ يَنْسَخَ النُّــورُ الظَّلاَمَــا

إِنّ نُــورَ الْحَــقِّ فِيْنَــا سَــاطِعٌ   عَمِيَــتْ أَعْــدَاؤُنَا أَمْ تَتَعَــامَى؟

سَنَدُوسُ الْحَمْــرَ لاَ نُعْنَــى بِــهِ   وَنَخُوضُ الْبَحْرَ لَوْ عَــادَ ضِــرَامَا

❋❋❋

(١) هذه الأبيات من قصيدة بهذا العنوان كنت تلوتُها في حفلة كبرى في دمشق بحضرة صاحب الدولة أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية والقائــد العــام للجــيش السلطاني الرابع. (حبيب).

لاَ تُرَاعِي.!

لاَ تُرَاعِي نَحْــنُ جُنْــدُ اللهِ قَــدْ   جَاءَ يُقْصِي عَنْكِ يَا مِصْرُ اللِّئَامَــا
فَعَلَى اسْــمِ اللهِ تَجْــرِي فُلْكُــهُ   وَبِكَــفِّ اللهِ يَسْــتَلُّ الْحُسَــامَا
أَتُــرَى يُخْطِــئُ سَــهْمٌ هَــدَفاً   وَيَدُ اللهِ الَّتِــي تَرْمِــي السِّــهَامَا
يَا نِيَاطَ الْقَلْبِ مِنْ خَصْــمٍ بَغَــي   لَمْ يَكُنْ يَرْعَــى ذِمَــاراً وَذِمَامَــا
أَذِنَ اللهُ فَخُــــــذْهَا رَمْيَــــــةً   مِنْ نِصَالٍ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزُّؤَامَــا

نَحْنُ جُنْدُ الْحَقّ

نَحْــنُ جُنْــدُ الْحَــقِّ لاَ يُرْهِبُنَــا   بَاطِلٌ قَــطُّ وَلاَ نَخْشَــى مُلاَمَــا
كَأُسُــــودٍ أَنْشَــبَتْ أَظْفَارَهَــــا   حَيْثُ حَامَتْ حَلَّقَ الْمَوْتُ وَحَامَــا
فَمَنَايَانَــــا مَطَايَانَــــا كَمَــــا   نَحْتَذِي آجَالَ مَنْ يَبْغِي اهْتِضَــامَا
نَرْكَبُ الْمَوْتَ، عَلَــى صَــهَوَاتِهِ   نَقْطَــعُ الْبِيْــدَ وِهَــاداً وَآكَامَــا
فلَوْ أنَّ الشَّــمْسَ حَالَــتْ دُونَنَــا   لَضَرَبْنَا فِي فَمِ الشَّــمْسِ اللِّجَامَــا
فَكَــأَنَّ الْخَيْــلَ تَعْــدُو تَحْتَنَــا   فُلُــكٌ يَحْمِــلُ أُسْــداً تَتَسَــامَى
وَإِذَا مَا شَكَتِ الْخَيْــلُ الْــوَجَى   احْتَذَتْ تِيْجَانَ أَمْــلاَكٍ ضِــخَامَا

دَوِّخُــوا الأَقْطَارَ

قَدْ لَبِسْنَا لِلْــوَغَى الْعَــزْمَ الَّــذِي   أَقْعَــدَ الــدَّهْرَ قُرُونــاً وَأَقَامَــا
فَخِفَافــاً قَــدْ نَفَرْنَــا لِلْــوَغَى   وَثِقَــالاً وَقُعُــوداً وَقِيَامَــا
لاَ يَقِــي مِنَّــا عَــدُوّاً بُعْــدَهُ   أَبْعَدُ السُّحُبِ الَّذِي كَانَ جَهَامَا(١)

---

(١) الْجَهَامُ؛ بِالْفَتْحِ: السَّحَابُ الَّذِي لاَ مَاءَ فِيْهِ، وَقِيْلَ: الَّذِي قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ مَعَ الرِّيْحِ.

نَحْـــنُ كَــالْمَوْتِ فَــلاَ يُعْجِزُنَــا هَارِبٌ لَوْ تَخِــذَ الْجَــوَّ مُقَامَــا
لاَ نُبَــالِي حِــيْنَ تَــذْكُو نَارُهَــا أَسَعِيْراً قَدْ وَطِئْنَــا أَمْ رَغَامَــا؟[١]
إِنَّ جَمْراً يَقْــذِفُ الْحَــرْبُ بِــهِ رُبَّمَا خِلْنَــاهُ زَهْــراً وَكَمَامَــا[٢]
شِــيَمٌ مَوْرُوثَـــةٌ عَـــنْ سَـــلَفٍ كَشَفُواْ عَنْ وَجْنَةِ الــدَّهْرِ اللِّثَامَــا
خِيْــرَةُ اللهِ مِــنَ الْقَــوْمِ الأُوْلَــى شَيَّدُواْ فَوْقَ الْقَنَا مُلْكــاً جِسَــامَا
سَــلَبُواْ الأَمْــلاَكَ ثَــوْبَي عِزِّهَــا دَوَّخُوا الأَقْطَارَ فِي عِشْرِيْنَ عَامَــا
حَطَّمُوا كِسْرَى وَهَــزُّواْ قَيْصَــرا وَاسْتَقَامُواْ لِلنَّجَاشِيِّ مَــا اسْــتَقَامَا
وَهِرَقْـــلُ وَدَّعَ الشَّـــامَ وَقَـــدْ مُلأَتْ أَنْفَــاسُ شَــكْوَاهُ الشِّــئَآمَا
وَبِأَفْرِيْقَـــاءَ جَالَـــتْ خَـــيْلُهُمْ لَــيْسَ تَجْــرِي بِهِــم إِلاَّ أَمَامَــا
وَسَـــمَتْ أَنْـــدَلُسٌ إِذْ سَـــبَّحَتْ بِاسْمِهِمْ حَمْداً وَشُكْراً وَاحْتِرَامَــا
وَأَقَـــامُوا بِـــالْعِرَاقَيْنِ سَـــناً وَسَـــنَاءً لِلْعُلَـــى كَانَــا قِوَامَــا
كُـــلُّ أَرْضٍ وَطِئَـــتْ أَقْـــدَامُهُمْ أَنْبَتَتْ عِــزّاً وَمُلْكــاً وَاحْتِشَــامَا
صَـــفْوَةُ اللهِ الَّـــذِيْنَ اخْتَـــارَهُمْ وَبِهِـــمْ قَـــدْ رَحِـــمَ اللهُ الأَنَامَــا
عَبَـــقَ الْغَـــرْبُ بِنَشْـــرٍ مِـــنْهُمُ كَادَ يَطْوِي الشَّرْقَ ظُلْماً وَخِصَامَا
أَيْنَ ذَاكَ الْمَجْدُ يَا سَــعْدُ وَهَــلْ تُـــوقِظُ الأَقْـــلاَمُ أَقْوَامــاً نِيَامَــا
نَادِمَـــانِي بِأَحَادِيْـــثِ الْمُنَـــى فَأَحَادِيْثُ الْمُنَــى نَقْــلُ النَّــدَامَى
مُنَـــزِّلَ الْقُـــرْآنِ رُحْمَــاكَ أَلَـــمْ يَــأْنِ أَنْ يَفْقَــهَ أَهْلُــوهُ الْكَلاَمَــا
إِنَّمَـــا أَنْزَلْـــتَ نُـــوراً وَهُـــدىً مَحَيَــا عَنَّــا ضَــلاَلاً وَظَلاَمَــا
وَالَّـــذِي يَمْلَـــؤُ قَلْبِـــي جَـــذَلاً أَنَّ فِـــي الْقَــوْمِ انْتِبَاهــاً فَقِيَامَــا

(١) الرَّغَامُ: التُّرَابُ اللَّيِّنُ.
(٢) كَمَمْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتُهُ، وَالْكِمَامُ مَا سُدَّ بِهِ.

إِنَّ فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَــرْبِ لَنَــا ضَــجَّةَ الــدَّاعِي زَئِيْــراً وَبُغَامَــا
إِنَّ لِلــــدِّيْنِ بِنَــــا مُعْتَصَـــماً وَكَذَا لِلدِّيْنِ مَــا زِلْنَــا عِصَــامَا
سَــنُعِيْدُ الْكَــرَّةَ الْيَــوْمَ كَمَــا بَــدَأَتْ، نُحْسِــنُ بَــدْأً وَخِتَامَــا
إِنَّ سَــــيْفَ اللهِ لاَ يَنْبُــــو إِذَا مَا نَبَا سَيْفٌ وَلاَ يَلْفِــي كَهَامَــا[١]

تَنَالُونَ الْمَرَامَا

بَشِّرِي الأَهْــرَامَ يَــا مِصْــرُ بِنَــا وَاقْرَئِي مِنَّا عَلَى النِّيْــلِ السَّــلاَمَا
نَحْــنُ جُنْــدُ اللهِ جِئْنَــا مَــدَداً لِمَعَالِيْكِ الَّتِــي تَشْــكُو الطُّغَامَــا
فَنُنَحِّــي عَــنْ مَغَانِيْــكِ لِئَامَــا وَنُضَحِّي تَحْتَ رِجْلَيْــكِ كِرَامَــا
شَــاقَنَا النِّيْــلُ فَجِئْنَــاهُ عَسَــى يُطْفِئُ النِّيْلُ مِنَ الْقَلْبِ الأُوَامَــا[٢]
آهٍ مِــــنْ قَــــاهِرَةٍ مَقْهُــــورَةٍ بِيَــدَيْ عَــاهِرَةٍ تَلْقَــى آثَامَــا
إِنْ تَرُومُوا يَا بَنِــي مِصْــرَ الْعُلَــى فَبِنَــا الْيَــوْمَ تَنَــالُونَ الْمَرَامَــا

ثَأراً وَانْتِقَاماً

يَا بَنِي النِّيْــلِ مَــدَدْنَا نَحْــوَكُمْ يَــدَ مَــنْ يَبْغِــي وِدَاداً وَوِآمَــا
صَــافِحُوا مِنَّــا يَــداً لَــوْلاَكُمُ مَا انْتَضَتْ[٣] هَضْباً وَلاَ هَزَّتْ قَوَامَا
صَافِحُوهَا أَذْرُعــاً مِــنْ أَجْلِكُــمْ شَمَّرَتْ تَطْلُــبُ ثَــأْراً وَانْتِقَامَــا

---

(١) كَهَمَ الرَّجُلُ فَهُوَ كَهَامٌ: بَطُؤَ عَنِ النُّصْرَةِ وَالْحَرْبِ. وَفَرَسٌ كَهَامٌ: بَطِيْءٌ عَنِ الْغَايَةِ. وَسَيْفٌ كَهِيْمٌ وَكَهَامٌ: لاَ يَقْطَعُ، كَلِيْلٌ عَــنِ الضَّــرْبَةِ. لســان العــرب: ج ١٢ ص١٨٠.

(٢) الأُوَامُ: حَرُّ الْعَطَشِ، وَقِيْلَ: شِدَّةُ الْعَطَشِ وَأَنْ يَضِجَّ الْعَطْشَانُ.

(٣) نَضَّ الطَّائِرُ: حَرَّكَ جَنَاحَيْهِ، وَاسْتَنْضَضْتُ مِنْهُ شَيْئاً إِذَا حَرَّكْتُهُ وَأَقْلَقْتُهُ بِنَشَاطٍ.

كَـــمْ سَـــمِعْنَا لَكُـــمْ مِـــنْ أَنَّـــةٍ فَذَرَفْنَا أَدْمُعاً فِـــيْكُمْ سِـــجَامَا[١]
وَلَقَــــدْ آنَ لِــــدَمْعِ الْعَـــيْنِ أَنْ يَسْتَحِيْلَ الْيَوْمَ فِي الثَّغْـــرِ ابْتِسَـــامَا

حَطِّمِي الأَغْلاَلَ

حَسْبُ وَادِي النِّيْـــلِ مَـــا كَابَــدَهُ ثُلُثَ قَرْنٍ يَشْتَكِي فِيْـــهِ السِّـــقَامَا
مِـــنْ جَـــرَاثِيْمَ يُقَطِّعْـــنَ الْحَشَـــا مِنْ بَنِي النِّيْلِ وَيَبْعَـــثْنَ الْحِمَامَـــا
تَسْكُبُ الْمَوْتَ بِأَقْـــدَاحِ الصَّـــفَا وَإِذَا مَا سُئِلَتْ قَالَـــتْ: مُـــدَامَا[٢]
فَكَـــأَنِّي بِالَّــــذِي نَـــامَ وَقَـــدْ أَدْرَكَتْـــــهُ غَيْـــــرَةُ اللهِ فَقَامَـــــا
فَـــإِذَا بِالنِّيْـــلِ يَجْـــرِي سَلْسَـــلاً وَإِذَا الأَهْرَامُ قَـــدْ عُـــدْنَ غُلاَمَـــا
حَطِّمِي الأَغْلاَلَ يَـــا مِصْـــرُ فَمَـــا يَحْسُنُ الضَّـــيْمُ بِحُـــرٍّ فَيُضَـــامَا

جَمَالٌ وَجَلاَلٌ

يَـــا (جَمَـــالاً) طَبَعَـــتْ أَسْـــيَافُهُ مِنْ جَلاَلٍ وَارْتَأَى الأَغْمَادَ هَامَـــا
قَائِـــدٌ تَعْنُـــو الثُّرَيَّـــا وَالثَّـــرَى لِعُـــلاَهُ كُلَّمَـــا هَـــزَّ الْحُسَـــامَا
فَعُقَـــابُ الْجَـــوِّ يَخْشَـــى بَأْسَـــهُ وَتُرَجِّي فَـــيْضَ كَفَّيْـــهِ النُّعَـــامَى
يَعْـــذُبُ الْمَـــاءُ لِصَـــادٍ بِاسْـــمِهِ وَتَعُـــودُ النَّـــارُ بَـــرْداً وَسَـــلاَمَا
يَنْصُـــــرُ اللهَ وَيَرْجُـــــو نَصْـــــرَهُ وَبِهِ يَسْـــطُو اتِّكَـــالاً وَاعْتِصَـــامَا

---

(١) سَجَمَ: سَجَمَتِ الْعَيْنُ الدَّمْعَ تَسْجُمُهُ، وَهُوَ قَطَرَانُ الدَّمْعِ وَسَيَلاَنُهُ قَلِيْلاً كَـــانَ أَوْ كَثِيْراً.

(٢) دَوَمُ: دَامَ الشَّيْءُ يَدُومُ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الأَمْرِ: الْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهِ. وَالْمُـــدَامُ: الْمَطَـــرُ الدَّائِمُ، وَقِيْلَ: سُمِّيَتِ الْخَمْرُ مُدَامَةً؛ لِعِتَقِهَا. وَكُلُّ شَيْءٍ سَكَنَ فَقَدْ دَامَ.

فَالْمَقَـــادِيْرُ تُجَارِيْـــهِ كَمَـــا شَاءَ تَصْـــرِيْفَ الْمَقَـــادِيْرِ وَرَامَـــا

سِرْ عَلَى اسْـــمِ اللهِ مَنْصُـــوراً بِـــهِ وَارْمِ عَنْ قَوْسِ الْمَقَادِيْرِ السِّـــهَامَا

سِرْ فَدَاكَ الدَّهْرُ ممّا قَـــدْ جَنَـــى فَإِلَيْكَ الدَّهْرُ قَدْ أَلْقَـــى الزِّمَامَـــا

ســـرْ وَعَـــيْنُ اللهِ تَرْعَـــاكَ فَـــإِنْ تَغْفُ عَيْنٌ فَهِيَ يَقْظَى لَـــنْ تَنَامَـــا

ســـرْ فَمَـــا منَّـــا فَـــتىً إلاّ وَقَـــدْ مَلأَتْ أَحْشَـــاؤَهُ مِصْـــرُ غَرَامَـــا

وَحَـــــرَامٌ دُونَ نَيْـــــلِ الْمُبْتَغَـــــى أَنْ يَذُوقَ الْجَفْنُ مِنْ حُـــرٍّ مَنَامَـــا

سِرْ فَقَدْ ضَـــاقَتْ عَلَـــى سُـــكَّنِهَا مِصْرُ لَمْ تَهْنَـــأْ شَـــرَاباً وَطَعَامَـــا

سِرْ عَلَى اسْمِ اللهِ مَا مِـــنْ مُسْـــلِمٍ ثَمَّ إلاّ بِاسْمِكَ الْعَـــالِي اسْـــتِهَامَا

شُعَرَاءُ النِّيلِ!

شُـــعَرَاءَ النِّيْـــلِ حَيُّـــوا جَيْشَـــنَا بِقَوَافٍ لَوْ وَعَاهَا الصَّـــخْرُ هَامَـــا

تَمْلَـــؤُ الْكَـــوْنَ بَهَـــاءً مِثْلَمَـــا تَمْلَـــؤُ الْجَـــيْشَ حَنِيْنـــاً وَهَيَامَـــا

تُـــوقِظُ الْوَسْـــنَانَ مِـــنْ رَقْدَتِـــهِ تَنْشُرُ الْمَيْتَ وَقَدْ صَـــارَ عِظَامَـــا

تُرْقِصُ الْفُرْسَانَ فِي عَرْضِ الْـــوَغَى وَبِرَوْضٍ نَاضِرٍ تُشْـــجِي الْحَمَامَـــا

إِنَّ جَيْشـــاً قَائِمـــاً مِـــنْ أَجْلِكُـــمْ لَحَقِيْـــــقٌ أَنْ تُحَيُّـــــوهُ قِيَامَــــا

فَـــانْظُمُواْ الشِّـــعْرَ بِـــهِ مِـــنْ دُرَرٍ وَدرَارٍ ثُـــــمَّ أَهْـــــدُوهُ النِّظَامَـــــا

وَابْعَثُـــــوهُ لِسَـــــمَاءٍ أَنْجُمـــــاً فَسَمَاءُ الْقَوْمِ قَدْ عَادَتْ قَتَامَـــا[1]

---

(١) الْقَتَمُ وَالْقَتَامُ: الْغُبَارُ، وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: إِذَا كَانَتْ فِيْهِ غَبْرَةٌ وَحُمْرَةٌ فَهُوَ قَاتِمٌ. لسان العرب.

كَهَانَةٌ سِيَاسِيَّةٌ
فِي الْحَرْبِ الْعَامَّةِ وَمَصِيْرُ الدَّوْلَةِ الإنْكلِيْزِيَّةِ

لا مِرْيَةَ أن الحرب الحاضرة العامة يتيمة التاريخ وبيضة عقره لا أخبر بمثلها فيما غبرَ ولا إخالهُ يأتي لها بعد هذا بنظيرٍ. وما أظنُّ جمرَها المتَّقدَ يخمــدُ دون أن يبقى منه وميضٌ خلال الرماد كلَّما عصفت به ريحُ الحوادث عاد ضراماً. سوف تنتهي هذه الحربُ، ولكن ما أرى الدهرَ يضمنُ بانتهائها دون أن تعود بثوبٍ آخر ولكن الروح تلك الروح على أصولِ القمــيص، ليكــوننَّ لهــا صفحاتٌ متعددة ثم لكل صفحة نتيجة غير الأخرى حتى تأخذَ السماءُ قسطَها من سكَّان الأرض، وينتقمُ الله من عباده جميعاً ثم من بعضــهم لــبعض. وفي خلالِ هذا التيار من عجائب التاريخ تتخضدُ شوكة بريطانيا العظمى ويصغر تاجُها الكبير وبذلك تختم الوقائع فيعود النظامُ ويسود السلام ويستريح البشر عامة والمسلمون خاصة من جنايات الإنكليز، وما ذلك على الله بعزيز.

وما هي بكهانة ولكنها دعوى تعضدها الشواهد ويؤيدها البرهــان. وإن كنتَ في ريبٍ من هذا فاقرأ (جِنَايَاتُ الإنْكلِيْزِ) بتدبُّر وإمعان تكن بذلك من الموقنين. وقل انتظروا فإنَّا معكم منتظرون وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقلــب ينقلبون.

وهذا آخر ما حملني على إيراده حسن النية وخلوص الطوية للبشر عامــة ولمواطنيّ الشرقيين خاصة، ثم لإخواني المسلمين على الأخص. ولا آمن علــى نفسي الزلل فيما كتبت، ولكن رجائي إلى القارئ الكريم أن يأخذ لنفسه ما كان صواباً وأن يدع لي ما رآه خطأً، وأظنُّني قد أنصفتهُ بهذا فلينصفني كما أنصفتُ. واللهُ الْمُسْتَعَانُ وَإِلَيْهِ الْمَآبُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السِّيْرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلْمُصَنِّفِ

السيد مُحَمَّدُ حبيب بن السيد سليمان العبيدي من ذريَّة السيد مُحَمَّد أَبِي البركات جدِّ السيد عبيدالله الذي ينسب إليه السادَةُ (العبيديُّون) في الموصل. ولد في مدينة الموصل في ٢ ذي الحجة سنة (١٢٩٦هـ- ١٨٨٠م). وتوفِّي سنة (١٩٦٣م). وشيَّعه أهالي الموصل ووجهاؤها وعلماؤها.

نَشْأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

درس في دار أبيه سليمان العبيدي على مدرس خاص، ثم دخلَ المدرسة الرشيدية العثمانية فتخرَّج منها، وحصل على الإجازةِ العلمية على المذهب الحنفي وهو في سنِّ الثامنة عشرة من عمره.

تتلمذَ رَحِمَهُ اللهُ على الشيخ ملاَّ علي الحصيري، العالِم الفقيه. والسيد أحمد الفخري الملقب بابنِ أمين الفتوى، وهو الذي أجازَهُ. وغيرهما من علماء الموصل.

حَيَاتُهُ السِّيَاسِيَّةُ:

سُجن سنة ١٩١٨م في بيروت، واعتقل سنة ١٩١٩م في مصر ثم في الهند. وأُنذر بمغادرة العراق سنة ١٩٢٠م. وفي الحرب العامة في عهد الدولة العثمانية البائدة تطوَّع في حملة الزحف على ترعة السويس عضواً في هيئة

العلم النبوي، وزار في وفد علمي جبهة الحرب في الدردنيل.

وفي سنة ١٩٢٦م مثَّل حكومة العراق في مؤتمر الخلافة بمصر. واشترك في المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٣٢م.

ومما كُلِّفَ به في الحكومة العثمانية المنقرضة منصب الإفتاء ثم الترشيح الحكومي لعضوية الْمَجلسِ النيابِيِّ العثماني في سنة ١٩١٢م. وكان حينئذ في العاصمة - اسطنبول-.

ومما كُلِّفَ به في حكومةِ العراق وزارة الأوقاف سنة ١٩٢٢م، فأَبَى أن يكون له مستشارٌ أجنبي في مؤسَّسة دينية، ثم منصب الإفتاء سنة ١٩٢٣م وكان قد شَرَطَ على منتخبيهِ من الشَّعب أن يكون من غيرِ راتبٍ ثم قال للحكومة: لا أخدمُ ديني بدراهم. ثم وزارة المعارف ونيابة الْمَجلسِ التأسيسيِّ سنة ١٩٢٤م فقال: ما أريدُ أن يكون لي في القتيلِ طعنةٌ، وذلك بعدَ اطِّلاعه على نصوصِ المعاهدة العراقية البريطانية المطلوب تصديقُها وعلى متنِ القانون الأساسي الْمُزْمَعِ وضعهُ، إذ أعطاه الملك فيصل ملك العراق يومئذ نسخةً منه يسألهُ رأيه فأعادها مع (٢٧) اعتراضاً.

ومما كُلِّفَ به الترشيحُ الحكومي لنيابة الْمَجلسِ النيابِيِّ سنة ١٩٢٥. ثم التدريس لكرسيين في كليَّة آلِ البيت في عاصمة العراق سنة ١٩٢٦م ثم عضوية مجلسِ الأعيان سنة ١٩٢٧م. ثم القضاء الشرعي في بغداد سنة ١٩٣٣م ثم القضاء الشرعيّ في لواء الموصلِ سنة ١٩٣٤م.

آثَارُهُ وَمُؤَلَّفَاتُهُ:

ومن آثاره ومؤلَّفاته المطبوعة: خطبةُ نادي الشرق، وجنايات الإنكليز على البشرية عامَّة وعلى المسلمين خاصة، وحبلُ الاعتصام في وجوب الخلافة في دين الإسلام وهو موضوعُ بحثنا ودراستنا، وبايتختده نطقلرم (وهي

مجموعة خُطب باللغة التركية ألقَاها سنة ١٩١٥م في إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية إذ زارَ جبهة الحرب في الدردنيل). وصدَى الحقيقة في العاصمة (وهي تعريبُ تلك الخطب)، والنواةُ في حقول الحياة، والفتوى الشرعية في جهاد الصهيونية، وذكرى حبيب (وهو ديوان شعره العربِي، بتحقيق أ. أحمد الفخري رَحِمَهُ اللهُ).

وأما كتبهُ التي لم تطبع فهي: ميزانُ التشريع-كتاب في أصول الفقه-(مفقود)، والديمقراطية الحقيقية في الإسلام – مفقود إلا فصلٌ منه–، وماذا في عاصمة العراق من سُمٍّ وترياقٍ؟ (وقد حالت الحكومة العراقية بحيلةٍ قانونية دون إتمام طبعهِ بعد نشر ثلاث كرَّاسات منه سنة ١٩٣٤م)، وعلى مسرحِ الدهر ماذا رأيتُ (وهي منظومة تاريخية ذات مقدمة منثورة واسعة)، ورحلة وادي النيل، والجراثيم الثلاث الأمراء والعلماء والنساء (مفقود إلا فصل منه)، ورسائلُ العبيدي (وهي ثلاثة أجزاء فيما اتفق له من مراسلة الملوك والأمراء والعلماء والوزراء والقادة والزعماء خدمة لأهدافه الدينية أو القومية أو الوطنية وديعة للتاريخ)، وإيقاظ الوَسْنَانِ في حياة الإنسان (مفقود)، الْمُجَادَلاتُ السياسية وأسبابُ الفشل الأساسية (مفقود)، وشفاءُ الغليل في رحلة وادي النيل (مفقود)[١].

ومن آثاره التركية: لا نهء دل، نا لهء سحر (وهما باللغة التركية من منظوم....) وقد ذهب بعض آثاره ضحية الاستبداد الغاشم.

---

(١) ينظر: أحمد مُحَمَّد المختار، تاريخ علماء الموصل: ج ٢ ص٥٣.

السِّيْرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلْمُحَقِّق

- هِشَامُ بْنُ عَبْدِالْكَرِيْمِ بْنِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِالْقَادِرِ الْبَدْرَانِيُّ الْحُسَيْنِيُّ الْمَوْصِلِيُّ.
- مواليدُ الموصلِ ١٩٥٨/٣/٢٣ ميلادية.
- درسَ في المدارس النظاميَّة في مدينة الموصل، وتخرَّج من معهدِ المعلمين المهنيِّين سنة ١٩٧٨ ميلادية.
- درسَ العلومَ الشرعية بين يدَي الشيخِ صادق بن مُحَمَّد سَليم الْمَزُورِيّ، والشيخِ ذنُّون البدرانِيّ، والشيخِ عبدالقادر الدبونِيِّ. ابتداءً من سنة ١٩٨٥؛ وأجازهُ الشيخُ عبدالقادر بن فائقِ بن صالح الدبوني إجازةً علميَّة عامة بعلوم الشريعة الإسلامية في ٢٢/ جُمادى الأولى/١٤١٧ من الهجرة، الموافق ٤/تشرين الأول/١٩٩٦ ميلادية.
- إمامٌ للصلاة ومدرِّس في مسجدِ العبادلة في الموصل.

أَعْمَالٌ مُنْجَزَةٌ فِي مَجَالِ التَّأْلِيْفِ:

١. رؤيةٌ إسلامية في مفهومِ العقل، (١٩٩٠م — العراق).
٢. العقليةُ الإسلامية — بناؤها وتكوينُها (١٩٩٠م — العراق).
٣. خطابٌ هادئ إلى الشبابِ (١٩٩٤م — العراق).
٤. الحضارةُ والمدنيَّة في الفكرِ الإسلامي (١٩٩٤م — العراق).
٥. مدخلٌ إلى الفهمِ الإسلامي (١٩٩٤م — العراق).
٦. مناهجُ الأدلة في بَحث أسماءِ الله وصفاته (١٩٩٨م- دار البيارق)، (٢٠٠٢م- دار الكتاب).
٧. منهاجُ الإيْمَانِ في الإسلامِ (١٩٩٨م - دار البيارق)، (٢٠٠٢م - دار الكتاب).
٨. عجالةُ المتفقِّه إلى معرفةِ أصُول الفقه (١٩٩٨م - دار البيارق)، (٢٠٠٢م - دار الكتاب).

٩. مدخلٌ إلى دراسةِ العلوم الشرعيَّة (٢٠٠١م - دار الكتاب).

١٠. مسائلُ فكريَّة وفقهية (١٩٩٨م - دار البيارق).

١١. الحكمُ الشرعيُّ في الألعاب الرياضيةِ (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٢. الحكمُ الشرعي في تصنيعِ الخمر لأغـراض التـداوي (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٣. الأمةُ الإسلامية — حقيقةُ الفكرةِ وواقـع الممارسـة (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٤. مفاهيمُ علماءِ النَّفس — دراسةٌ وتحليل (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٥. استدراكاتٌ وإيضاحات (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٦. الْمُحَلَّى علىشرح الْمَحَلِّي لورقات الْجِوينيّ في علـمِ أصُـول الفقـهِ (٢٠٠٣م- دار الكتاب).

١٧. الأنوارُ اللاَّمعة، شرحُ المقصدِ الأول من المقاصدِ النافعة للإمام النـوويِّ (٢٠٠٣م — العراق).

١٨. عقيدةُ أهلِ الإسلام على أصُول منهج الفقهاء الْمُحَدِّثينَ.

١٩. تكوينُ حكومةِ المسلمين في حال خُلُوِّ الزمان عن الخلافة والإمامِ.

أَعْمَالٌ فِي مَجَالِ التَّحْقِيْقِ:

٢٠. عجالةُ الْمُحتاجِ إلى توجيه المنهاجِ لابن الملقِّن (فقهٌ شافعي) شرحُ منهاج الطالبين للإمام النووي في أربع مجلدات، (٢٠٠١م - دار الكتاب).

٢١. توضيحُ المشكلاتِ شرحُ كتاب الورقات في علمِ أصُول الفقهِ — وهـو المشهورُ بشرح الْمَحَلِّي على ورقاتِ الجويني في علم أصُول الفقه، طُبِـعَ في القسمِ الأول من كتاب الْمُحَلَّى علىشرح الْمَحَلِّي — قسمُ التحقيق— حيث حُقِّقَ على ثلاث نُسخ مخطوطة، وأكثر من خمسة نسخ مطبوعـة، (٢٠٠٣م- دار الكتاب).

٢٢. حبلُ الاعتصامِ ووجوب الخلافة في دينِ الإسلام للشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي الموصلي.
٢٣. جناياتُ الإنكليزِ على البشر عامَّة وعلى المسلمين خاصَّة للشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي الموصلي.
٢٤. كَنْزُ الراغبين شرحُ منهاجِ الطالبين للإمام الْمَحَلِّي (فقه شافعيٌّ) شرحُ منهاج الطالبين للإمام النووي، يقع في أربع مجلدات.
٢٥. تبصرةُ الأفهامِ — قراءةٌ في كتابِ نظام الإسلام. وهو تحقيقٌ لكتابِ نظام الإسلام للشيخ القاضي مُحَمَّدُ تقي الدين النبهانِيُّ، (العراق – ٢٠٠٣م).
٢٦. إيقاظُ الفِكَرِ. وهو تحقيق لكتاب الفكر الإسلامي للشيخ الأستاذ مُحَمَّد مُحَمَّد إسماعيل.
٢٧. الشخصيةُ الإسلامية — تأسيسُ الاعتقادِ وتأصيلُ الفكرِ، للشيخ القاضي مُحَمَّد تقي الدين النبهانِي.
٢٨. الشخصيةُ الإسلامية — دراسةُ الفقهِ، تأصيل النظام السياسي في الإسلام، للشيخ القاضي مُحَمَّد تقي الدين النبهانِيّ.
٢٩. مقدمةُ الدستورِ للشيخ القاضي مُحَمَّد تقي الدين النبهانِي.

فَهْرَسُ الْمُحْتَوَيَاتِ